أسـرار النـفس

د. أحمد فؤاد الأهواني

- المؤلف: د. أحمد فؤاد الأهواني
- العنوان : أسرار النفس
- طبعة آفاق الأولى 2020
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩ / ٢١٣٧٩
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 260 - 5

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

أسـرار النفـس

تأليف

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

الأهواني، أحمد فؤاد

أسرار النفس - أحمد فؤاد الأهواني

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2020

240 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 21379 / 2019

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 260 - 5

1 - علم نفس

2 - العنوان

المحتويات

لمحة	٩
علـــى الدرب	١١
النظر	١٣
السمـــع	١٩
الاتصال	٢٤
الذوق	٢٩
الطريق	٣٤
السوق	٤٠
مع الركـــب	٤٥
اللهو	٤٧
الثقة	٥٢
التقدم	٥٧
الإضراب	٦٢
اللائق والواجب	٦٨

التربية الصحيحة	٧٣
من الْغَــوْر	٧٩
الضالة المنشودة	٨١
النفس والروح	٨٦
انتقال الفكر	٩١
الاتصال الروحي	٩٦
الأحلام	١٠١
الرؤيا الصادقة	١٠٧
جواهــر	١١٣
الكلمة	١١٥
القراءة	١٢٠
الأدب المكشوف	١٢٥
الذوق والمجتمع	١٣٠
شفــاء	١٣٥
التحليل النفساني	١٣٧
الغمز واللمز	١٤٢
الظاهر والباطن	١٤٧
تخاف من العرائس	١٥٢

كيف تنسى	١٥٨
الانشراح	١٦٤
جوانح ونوازع	١٧١
الطموح	١٧٣
الغرور	١٨٠
الحسد	١٨٨
المال	١٩٦
البخل	٢٠٢
معـــادن	٢٠٩
أصناف الناس: المسالمون	٢١١
أصناف الناس: المعتدون	٢١٧
أصناف الناس: الواهمون	٢٢٣
ثمن الناس	٢٢٩
في الصداقة والصديق	٢٣٥

لمحة

أعذب الحديث حديث النفس، إلى النفس، وعن النفس.

ولن يفرغ الحديث عنها في صفحة أو كتاب أو مجلدات؛ فهي السر المكنون، واللغز الذي حارت فيه العقول، على وفرة ما قال عنها الحكماء والمفكرون من أقدم العصور حتى اليوم.

ولست أزعم أني قد كشفتُ الغطاء حتى برح عن أسرار النفس الخفاء، ولكنها محاولة تُضاف إلى محاولات السابقين الذين استفدت من اطلاعي على آرائهم، أو هي نظرة شخصية رأيت منها النفس الإنسانية كما بدت لي. وهل العلم إلا النظر؟ ولذلك جاءت هذه الدراسات موسومة بطابع النزعة الشخصية، والتجربة التي حدثت لي خلال حياتي. ولم أتعمد التأليف فيها عن قصد، فهي خطرات تجاوبت في نفسي، نشأ بعضها عن القراءة، وبعضها الآخر عن التأمل في سيرة الناس، ثم أودعتها مقالات في الصحف، أو أحاديث على أمواج الأثير. وقد ضممتها في هذه الباقة، ورأيت أنها قد تكشف عن بعض الأسرار.

ولما كانت هذه الفصول ثمرة التجربة الشخصية، فإنها تمتاز بالصدق. والإحساس الصادق أساس كل دراسة نفسية أصيلة؛ لأنه يكشف عن الحق، ويصل إلى القلب.

مارس ١٩٥١ **أحمد فؤاد الأهواني**

* * *

على الدرب

- النظـــر
- السمـــع
- الاتصـال
- الـــذوق
- الطريـق
- الســـوق

النظر

لو أنَّ شخصًا من العهود الغابرة بُعث من جديد، وأخذ يتجول في هذه العالم يطَّلع على أحواله، كما حدث لأهل الكهف مثلًا، لرأى اليوم عجبًا. ومن أعجب العجب هؤلاء الناس الذين يحملون على وجوههم زجاجًا يحجب عيونهم، تلك التي نسميها عوينات أو نظارات؛ لقد مسخ الإنسان شكله، وشوّه منظره، وعدّل من الطبيعة الجميلة التي خلقه الله عليها.

ونحن نضع النظارات على أعيننا لتصحيح النظر، وتقريب الأشياء البعيدة، مما لا يُدرك بالعين المجردة. ولقد ابتكر العلماء آلتين من أهم المخترعات الحديثة وأعظمهما أثرًا في الاستعانة على الكشف، هما التلسكوب والميكروسكوب، الأولى لتقريب البعيد، والثانية لتكبير الصغير، فأدرك الإنسان كثيرًا من الحقائق كان يظل جاهلًا إياها لولا هذه الآلات، فكأنه أضاف إلى حواسه حاسة جديدة، أو أعان الحواس على عملها.

وقد فطن أرسطو من أقدم العصور إلى أنَّ الحواس خمس: البصر والسمع والشم والذوق واللمس، إلا أنَّ أعلاها قدرًا هو البصر. والعين هي الآلة التي ركَّبها الله في الإنسان؛ كي يرى الأشياء المحيطة به ويدركها ويعرفها، فيتعرف إلى هذا العالم بمقتضى ما يرى ويُدرك. فالعين هى النافذة التي نطل منها على العالم الخارجي، والحواس الأخرى كالأذن والأنف واللسان واليد نوافذ تطلعنا على صفات أخرى للأشياء غير التي تطلعنا عليها العين. فنحن لا نعرف من هذا العالم إلا المقدار الذي تسمح به هذه الحواس أو النوافذ. ولا ريب في أن الموجودات التي لا نراها ولا نعرفها في هذا العالم أكثر جدًّا مما نراه وندركه. فهذه الأشعة فوق البنفسجية، والتي يعالج بها الأطباء أمراض الكساح وسقوط الشعر، موجودة ولكننا لا نراها. فما أعظم جهل الإنسان ! بل أكثر من ذلك يُخيَّل إليك أن المشاهدات التي تراها هي الحقيقة، وإنما هي مظاهر تخفي الحقيقة وراءها. فأنت ترى نقطة الدم حمراء اللون، وإذا وضعتها تحت المجهر أو الميكروسكوب، رأيت أنها مركبة من نقط حمراء وبيضاء، فما حقيقتها؟ أهو اللون الأحمر أم المختلط؟ ولذلك لم يثق العلماء بالحواس، ولم تكن عندهم مصدر الحقيقة. وفي ذلك قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وللبصر منزلة عظيمة في حياة الإنسان وفي إدراكه للأشياء، وقد فطن قدماء الفلاسفة إلى هذه الأمر، فشبَّه أفلاطون إدراك الحقائق

المجردة والمعاني المعقولة بالبصر والضوء، فقال: كما نحتاج في البصر بالمحسوسات إلى ضوء الشمس؛ لأنها لا تُدرك في الظلمة، كذلك يحتاج العقل إلى ضوء ينير له الحق، ذلك الضوء هو الخير. وجعلوا «البصر» خاصًّا بإدراك الأشياء العادية المحسوسة، «والنظر» لإدراك الأمور المعقولة، فقالوا النظر العقلي، تشبيهًا له بالبصر المحسوس، فهذا من ذاك.

ولنعد إلى آلة البصر وهي العين، فإنها من عجائب الخلق، وليست وظيفتها مقصورة على الإدراك فقط، بل لها وظائف أخرى كثيرة يعرفها العشاق بوجه خاص، وتغنَّى بها الشعراء. أذكر وأنا طالب بالبكالوريا أنني لم أكن أميل إلى الشعر، ولم أحفظ منه شيئًا إلا هذين البيتين وهما:

إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرْفِها حَـــوَرٌ

قَتَلْنَنا ثُمَّ لَم يُحيِينَ قَتلانـــــا

يَصرَعنَ ذا اللُبِّ حَتّى لا حِراكَ بِهِ

وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللَهِ أَركانـــا

وسألني الممتحن في الشفهي ماذا تحفظ؟ فقلت له هذين البيتين، فاستحى أن يسألني في معناهما، وأجازني وأمرني بالانصراف.

والحور هو اشتداد البياض وسواد السواد، وقد أصاب الشاعر في وصفها بالقتل. الحق أن العين النافذة تصرع الناظر إليها، وهذا هو سر التنويم المغناطيسي؛ لأن الأصل فيه نظرة العين. فلما عجز المنوِّمون لجأوا إلى استعمال العين المغناطيسية، وهي كرة من الزجاج صغيرة

يمسكها المنوِّم في يده، ويطلب ممن يريد تنويمه تحديق النظر فيها، فإذا كان على استعداد للتأثُّر وقع في النوم.

ولو أنك حدَّقت في عين صاحبك لرأيت صورتك مرتسمة في إنسان عينه. قالوا -ولست أدري مبلغ ما في قولهم من صواب- إنَّ الصورة التي ترتسم في العين لا تزول إلَّا بعد فترة، وإن الميت حين يغمض عينيه تظل آخر صورة عالقة بهما. وزعموا أن البوليس يستطيع من فحص عيني القتيل أن يعرف القاتل، ولو أني أشك في ذلك.

والعين آلة النَّفْس على التحقيق، بها تفصح عن دخائلها، وتكشف عن بواطنها وأسرارها، فإذا كنت مسرورًا ضحكت عينيك، ولذلك قالوا العين الضاحكة والبسَّامة. وإذا كنت حزينًا جمدت العين وغارت، فإذا اشتد الألم فاضت العين بالدموع، وإنما ذلك دليل على ألم النفس. ولسنا نجد الحواس الأخرى كالسمع والشم والذوق واللمس تعبِّر هذا التعبير، أو تفصح هذا الإفصاح، فلا غرابة في أن تقول: العين هي نافذة النفس التي تطل منها. ولذلك قالوا: تفضحه العين؛ لأنها تكشف المستور.

ولو أنك نظرت إلى شخص آخر في عينيه نظرًا طويلًا مستقيمًا نافذًا لاطلعت على دخيلته بغير أن يتحدث إليك، ولهذا يستحي الجبان فيغض البصر، وقد يتبجح الفاجر فيفتح عينيه ليسترق النظر.

وأصفى الأعين أعين الأطفال؛ لأنهم لا يزالون على الطهر والعفاف لم تدنسهم أدران الحضارة والمدنية، ولا تزال نفوسهم على سجيتها

وعلى فطرتها الأولى من النقاء. ولقد كنت أنظر إلى عيني طفلتي وهي رضيعة، فأجد في ذلك لذة كبيرة؛ لأني أتصل بالنفس النقية البريئة. ومن غرائب الأطفال أنهم يطيلون التحديق، وتكون نظرتهم في الأشهر الثلاثة الأولى ثابتة لا تتحول.. وهذا من وحي الطبيعة التي تريد منهم إطالة النظر لكسب المعرفة.

وزعم الشعراء -ولهم خيال جامح- أن الطبيعة الجامدة لها أعين تنظر منها إلى الإنسان. فقال ابن المعتز، فيما أذكر[1]، يصف زهور الربيع:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك

وهو تشبيه طريف.

وقد حثَّ اللهُ الإنسانَ على النظر بما أودعه فيه من عين وعقل، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٧- ١٨]. والمقصود من النظر هنا ليس البصر المحسوس، بل الانتقال من المحسوس إلى ما وراء ذلك، وإلى علة الوجود وسبب الأسباب. ومن الأدلة في الإسلام التي دعا الله إليها لمعرفته سبحانه الدليل الطبيعي، أي النظر إلى المخلوقات لنهتدي منها إلى الخالق. وهذا ما فعله المسلمون في أوج حضارتهم وسلطان عزهم ومجدهم؛ حيث نظر المفكرون في الطبيعة والسكون فارتفع شأن العلم، حتى

(١) البيتين لأبي نواس. [المحرر].

إذا جاءت عصور التأخر، نهى علماء الدين عن هذا الضرب من النظر الطبيعي؛ بحجة أنه يصرف عن الدين الصحيح، وعدّوا المشتغلين بالكيمياء سحرة مشعوذين، وبالفلك كفارًا ملحدين. وأخذت أوروبا في ذلك العهد بمبدأ النظر إلى الطبيعة، فأثمرت العلم الذي تقدم على أيديهم في العصر الحاضر.

وإنا لنأمل أن نأخذ في الشرق اليوم بذلك المبدأ الذي دعا إليه الإسلام، نعني النظر إلى الطبيعة، فما كانت حرامًا بشكل من الأشكال، وأن نستفيد من العين لا بالاطلاع وقراءة الكتب فقط، بل بقراءة كتاب الطبيعة؛ فهو الأصل الذي يجب أن نرجع إليه؛ لنصل -كما فعل «دارون»- إلى معرفة الله ومعرفة مخلوقاته.

* * *

السمع

السمع إحدى الحواس الخمس، وترتيب هذه الحاسة يأتي بعد البصر، ذهب إلى ذلك أرسطو في كتاب النفس، ولا يزال العلماء يأخذون بذلك حتى اليوم. ولك أن تفتح أي كتاب في علم النفس الحديث، فتجد مؤلفه قد بدأ بالبصر ثم تبعه بالسمع. ونحن لا ننكر على البصر منزلته، وأثره بوجه خاص في المعرفة. فقد فطن قدماء الفلاسفة منذ عهد أفلاطون إلى الرؤية التي تحتاج إلى الضوء، فجمعوا بين العلم والنور، وقرنوا الجهل بالظلام. قالوا: والدليل على تقديم البصر على السمع أن أغلب الصور الواردة على الخيال بصرية، وأن أغلب الناس بصريون لا سمعيون، بل إن الإنسان في أحلامه يشهد رؤيا وقلَّ أن يسمع كلامًا، إلى أدلة كثيرة يسوقونها في تفضيل البصر على السمع.

والسمع أولى بالتقديم، وأوجب بالتفضيل.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالسمع والبصر، وجمع بينهما في أكثر من آية، إلا أنه سبحانه -وهو العليم بما خلق- قدم السمع على البصر،

فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨] وقال في ترتيب خلق الأعضاء للإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقال أيضًا في سورة «المؤمنون»: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

وقد رأينا الطفل في بدء نشأته يدرك عن طريق السمع، فهو يستجيب إلى النداء، ويطرب للمناغاة، ويلتفت إلى صوت أمه قبل أن يدرك الشكل بالبصر. ورأينا كثيرًا من صنوف الحيوان تهتدي بسمعها قبل أن تهتدي ببصرها.

ويُقال إن صغار القطط والأرانب تظل بضعة أيام مغمضة العينين قبل أن تُبصر، ولكنها تسمع.

غير أن طبيعة الحضارة التي نعيش فيها جعلتنا نعتمد على البصر أكثر من اعتمادنا على السمع، فكانت الكتابة أول سجل للحضارة، والكتابة رسم يُقْرأ بالعين لا صوت يُسمع بالأُذن. وأخذت الكتب في الانتشار، وأصبحت المراسلات سبيل التخاطب، والصحف منبر الأخبار والسياسة، فقلَّ الاعتماد على السمع.

ولكن الأصل في اللفظ أن يُنْطق، ولذا قيل: الإنسان حيوان ناطق، ولم يقولوا: قارئ أو كاتب، وجعلوا النطق دليلًا على التفكير. والأصل في الصحيفة المكتوبة أن تُتلى حين تُقرأ، لا أن تكون قراءتها صامتة تمر على حروفها بالعين. قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

[البينة: ٢].

وأُمرنا في الصلاة ألا نجهر بها وألَّا نخافت، بل نبتغي بين ذلك سبيلًا.

وقد تقرأ الشيء فتفهمه وتعجب به، حتى إذا سمعته من قائله ازداد تأثرك به؛ لأن الألفاظ -وقد كانت ميتة على الورق- أصبحت تسري فيها الحياة من حياة قائلها. ولذلك كان التعليم على سبيل الإلقاء أوقر في نفوس التلاميذ وأثبت في قلوبهم، وكان المعلم الذي يلقي درسه وكأنه يتحدث، أشد تأثيرًا في السامعين من المعلم الذي يقرأ مذكرة أو يحفظ الدرس ويلقنه، ولذلك أيضًا كانت الخطابة أعلى مرتبة من الكتابة. وقد رأينا الأمم في حضارتها تعتمد على الخطباء في المحافل العامة، وعلى المحدثين في المجالس الخاصة؛ لأن المعول في ذلك كله على السمع.

والشعر -وهو أرقى فنون الكتابة والآداب- يُنشد ولا يُتصفح، وتاريخ الشعر يدل على ذلك، فقد نشأ مع الموسيقى، أو احتاجت الموسيقى إلى كلام يُقال معها ويصاحبها فكان شِعرًا. وذكروا أن أول الشِّعر الجاهلي كان حداء الإبل، وكانت قصائد هوميروس في اليونان مما يتلوها المنشدون في مصاحبة القيثارة. وهذا شيء شبيه بما يفعله الشاعر الذي يتلو قصة «أبو زيد الهلالي» بمصاحبة الربابة. فإذا قرأت هذه القصة مدونة مكتوبة فلن تستمتع بها كما تسمعها من فم الشاعر.

والموسيقى تُسمع وتُبصر. فأنت تقرأ «النوتة» إذا كنت متعلمًا هذا الفن، ولكن قراءة النوتة الموسيقية لا تدل على شيء؛ لأن الأصل

في الموسيقى السماع. ومن الملاحظ أن الأمم التي تُعنى بالموسيقى تضرب بسهم عظيم في الحضارة، وكان ذلك شأن الأمم الإسلامية في أوج حضارتها، حتى لقد اشتغل الخلفاء أنفسهم بالموسيقى، وكان لبعضهم فيها مذاهب جديدة. وابتدع أبو نصر الفارابي الفيلسوف علم الموسيقى، وسُمِّي لذلك «المعلم الثاني» من حيث إن أرسطو -وهو المعلم الأول- كان أول من وضع المنطق، فسُمِّي الفارابي المعلم الثاني لأنه وضع التعاليم الصوتية. وتُحكى عن الفارابي قصة مشهورة، وهي أنه دخل على جماعة وهو في زي الصوفية الفقراء ومعه آلة موسيقية، فأصلحها وعزف عليها فأطربهم، ثم عزف لحنًا آخر فأبكاهم، ثم عزف لحنًا ثالثًا فأنامهم، وتركهم في سباتهم وانصرف.

فإذا شئنا أن نأخذ بأسباب الحضارة فينبغي أن نعنى بالحديث، والمحاضرة، والخطابة، والموسيقى. جملة القول أن يكون طريق التعليم الأُذن أولًا، ثم العين ثانيًا.

ومن الدليل على الرغبة المتأصلة في النفس البشرية لاستماع الحديث، ما يحدث من الأطفال والكبار حين يسترقون السمع، وهم يجدون في ذلك لذة كبيرة. وكان الجن يسترقون السمع. قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١]. وإلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن: ٩] ذلك أن الجن كانوا يصعدون إلى السماء لاستراق السمع. وقد زعم كثير من الحكماء والفلاسفة أنهم يسمعون موسيقى السماء حين تتحرك الكواكب في أفلاكها. حكى ذلك فيثاغورس في

الزمن القديم، وقال: إننا لا نسمع هذه الموسيقى لأن آذاننا تعودتها، وحكى ذلك جيته في العصر الحديث.

وحسن الاستماع فن من جملة آداب السلوك. وقد تكتسب قلب محدثك بالإقبال عليه والإنصات إلى ما يقول، وقد جرت عادة العامة والهمج أن يتكلموا جميعًا في آن واحد، فتختلط أصواتهم ولا يفهم أحد شيئًا، فهم أشبه بالحيوانات في الغابة، أو العصافير على الشجر، وقد رأينا الفرنجة يتأدبون في سماع المحاضرات العلمية، أو عند سماع الموسيقى والمغنين، ولست تجد ذلك في مجالس الشرق، وهذا من فساد الذوق وقلة الأدب.

فإذا عرفنا ما للسمع من خطر عظيم، فلا ينبغي أن نضيعه في الاستماع إلى الثرثرة الفارغة، أو الأدب الرخيص، أو الموسيقى المنحطة، بل يجب أن نعنى بتهذيب الأُذن فلا نسمع إلا الحديث المفيد، والموسيقى الراقية، وتستطيع الإذاعة أن تفيد الشعب من هذا الطريق فائدة عظيم.

* * *

الاتصال

قال: كيف تزعم أن السمع أولى من البصر، فتخالف المعروف، وتخرج على الإجماع؟ قلنا: ليس في الخروج على التقليد جريمة، إذا كان الحق مطلبنا، وقديمًا ظل العالم أسير أفكار أرسطو عشرين قرنًا من الزمان، فتأخر ولم يتقدم، ولك أن تقرع الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان. قال: ذكرت قول الله تعالى في تقديم السمع والبصر، وهذا صحيح في ترتيب النشوء، ولا يدل ذلك على التفضيل، كما أن اللمس أقدم من سائر الحواس، وهو ولا ريب أولها ظهورًا. ولا يخلو عنه أي حيوان. ومع ذلك فليس اللمس في أهمية السمع أو البصر.

قلنا: إن قِدم السمع في الظهور ليس دليلًا على أنه أدنى مرتبة. ونحن إنما ننظر إلى المسألة من جهة المعرفة، ومن طريق الوصول إلى الحقيقة.

قال: لقد درجنا على أنَّ البصر هو سبيل المعرفة بالأشياء الخارجية، فالعين تسجل ما تراه من الأشياء كأنها الفوتوغرافيا. وأنت

حين تفتح عينيك تقع على آلاف الأشياء دفعة واحدة، وإذا أغمضتهما لم تحس بشيء، اللهم إلا إذا خرج من الشيء صوت ينبهك إلى وجوده، ويكون سبيلًا إلى معرفتك به. فلو هدأت الأصوات ما عرفت شيئًا على الإطلاق.

قلنا: هذا صحيح: نحن نعرف الشيء بهيئته حين تقع العين عليه فتبصره، وبصوته حين نسمعه. ولكني أذهب إلى أن البصر لا يعرفنا إلا الظاهر، أما السمع فينفذ إلى الباطن، والباطن هو الجوهر، وهو الحقيقة التي شقى الحكماء في البحث عنها، أو هي حجر الفلاسفة.

قال: زدني بما تذكر بيانًا.

قلنا: الكائنات صنفان: جماد وحي، والحي ثلاثة أنواع: نبات وحيوان وإنسان. ونحن نعرف هذه الأصناف كلها بطريق الحواس، وأولها في النشوء اللمس، ولكن اللمس لا يعرفنا منها إلا صفة الملاسة والخشونة والصلابة والليونة، فإذا مررنا باليد عليها عرفنا شكلها أو هيئتها، وليس ذلك في الواقع عن طريق اللمس، بل عن طريق البصر الذي أدركنا به الأشكال من قبل، ومع ذلك فالجماد يظل ميتًا حتى ينطق، فإذا نطق حدثنا عن باطنه، وذلك حين يخرج الصوت. وآية ذلك أنك تنظر إلى قطعة الذهب أو الفضة من النقود فلا تميز الصحيح من الزائف حتى ترنها وتسمع صوتها، فلا تعود تخدعك بظاهرها.

أما الأحياء فلا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع.

والحياة مرتبة أعلى في الوجود من مرتبة الجماد.

فقد تنظر إلى العصفور المصنوع على هيئة الطير فتعتقد أنه عصفور حقيقي؛ لأنك تدركه بالبصر فقط، فإذا زقزق ونطق، وسمعت صوته، عرفت أنه حي، وتحققت من وجوده.

وقد عاصرنا السينما في عهدين: الأول حين كانت صامتة، ثم حين أصبحت ناطقة، فلما نطقت أصبحت أقرب إلى الحياة، وإلى الحقيقة، ولما كانت صامتة كانت أدنى إلى الموت.

وإذا نظرت إلى الماء وكان راكدًا لم تعرف إلا صفحته، فإذا كان جاريًا رأيت أمواجه وأبصرت تلاحُقها وجريانها. ولكنك حين تسمع خرير المياه تحس بشيء آخر يمتاز في وجوده وحقيقته عن مجرد النظر إلى صفحة الماء.

ثم إن الجماد لا يحفل بك، ولا يكشف عن جوهر نفسه؛ لأنك تدركه من الظاهر ولا يستجيب إليك. أما الحيوان فإنه كلما ارتقى في سلم التقدم، كشف عن حقيقته الباطنة وحدثك عنها، واستجاب لكل طارق. ألا ترى إلى القطة في الدار تنادي صغارها فتفهم عن أمها وتسارع إلى تلبية النداء. فالأصوات سبيل اتصال الحيوان بالحيوان، وليست الرؤية كذلك.

قال: ولكننا حين نبصر، يصدر عن الشيء شعاع أو أشعة تقع على العين وتنعكس في صفحة المخ، ثم تدركها آخر الأمر، فهذا سبيل الاتصال بالأشياء، نعني الشعاع.

قلنا: ولكن الشعاع لا يعرفنا إلا الظاهر، أما الصوت فإنه ينفذ من

الأذن ويذهب إلى القلب.

وقد حدثتك عن مرتبة الحيوان، ورأيت أنها أعلى من الجماد. أما مرتبة الإنسان فهي أشد علوًّا؛ وذلك لما يمتاز به من العقل والتمييز وإدراك المعاني. وكيف ندرك المعاني بغير ألفاظ، وكيف ندرك الألفاظ بغير سمع؟ ولقد ذهب القدماء إلى أن الإنسان حين يفكر بينه وبين نفسه، إنما يفكر بالكلام حتى لكأنه يحدِّث نفسه، وكثيرًا ما نرى شخصًا يسير في الطريق وهو يتمتم، وقد يخرج عن التمتمة إلى الكلام المسموع حتى نظن به الجنون. فإن قالوا لك: هذا إنسان نريد منك أن تتعرف إليه، وأن تتصل به، أيكفي في ذلك أن تنظر إليه، أم تستمع إلى حديثه؟ ولا نزاع في أن الاستماع إليه أشد اتصالًا بحقيقته. ولو قنعت بالنظر، لكان التمثال كافيًا، ولكننا لسنا عُبَّاد تماثيل وأصنام.

ويبدو أن الأطفال أسلم منًّا فطرة، فهم يركبون العصا ويتخيلونها حصانًا فيتحدثون إليها ويستنطقونها؛ لأن الحديث أقرب إلى الاتصال بالأشياء.

وذهب المحبون مذاهب شتى في غرامهم، ولكنهم لم يقنعوا من المحبوبة بمجرد النظر، بل طمعوا في الحديث؛ لأنه يقرب القلب من القلب، وهو أول سبيل الاتصال الروحي.

ثم أليس الله هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، طلب الناس في كل زمان معرفته، والاتصال به، فعرفه الأنبياء والرسل والأولياء الصالحون عن الطريق السمع، وسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ [النساء: ١٥٣] وعرفه موسى بالسمع، قال تعالي: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] والوحي يكون عن طريق السمع في أغلب الأحيان.

جملة القول إنَّ طريق الاتصال بالأشياء، وبالإنسان على وجه الخصوص، هو عن طريق السمع لا عن طريق البصر، وهذا الطريق هو الذي ينفذ إلى لب الحقيقة ويبلغ الجوهر، أما البصر فيقف عند الظاهر ولا يصل إلى الباطن.

* * *

الذوق

الذوق إحدى الحواس الخمس المعروفة وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس. وآلة الذوق اللسان، كما أن آلة البصر العين، والسمع الأُذن.

وقد فطن القدماء من الحكماء منذ عهد أرسطو إلى الصلة بين الذوق والشم، ولكن المباحث الأخيرة بينت أن معظم المطعومات التي نتذوقها مرجعها إلى الشم، ذلك أننا إذا أُصبنا بالزكام أو سددنا فتحتي الأنف، لم نعرف حقيقة الأشياء التي توضع على اللسان، ولن نستطيع أن نميز عصير البرتقال مثلًا فنقول إنه شيء حاذق، فإذا سُلكت منافذ الأنف ميزنا عصير البرتقال وغيره.

وقد دلت التجربة على أننا نميز باللسان أربع صفات: الحلو والمر والملح والحامض، أو ما يركب منها. وتغير الحرارة من طعم الأشياء، وكلنا يعرف كيف يكون طعم القهوة أو الشاي أو الكاكاو وهي ساخنة، وكيف يكون طعمها وهي باردة، إنها تختلف في الطعم اختلافًا عظيمًا. والأمر كذلك في الأشياء التي يطول مضغها.

ويعتاد اللسان الطعم بحيث لا يميز طعم أي شيء آخر، وخصوصًا إذا كان طعم الشيء الأول قويًّا مثل الأشياء الحامضة.

وتختلف أذواق الناس في طعامهم اختلافًا كبيرًا من فرد إلى فرد، ومن أُمة إلى أمة، ومن جماعة إلى جماعة، ويبدو أن للعادة تأثيرًا في ذلك. وقد سمعنا عن قوم يأكلون الجراد أو الفئران ويستطيبون طعمها.

ومن الأطباق المشهورة في مرسيليا ضفادع البحر. وكلنا في مصر -أعني أهل المدن- نعاف هذه الأطعمة، غير أننا لصلتنا الشديدة بأوروبا أصبحنا نألف أطعمتهم ونُقبل عليها. وقد أكلت الطعام الصيني في أحد المطاعم الصينية في باريس قبل الحرب، فرأيت قائمة الطعام تحتوي أربعين صنفًا، ولكنها كلها واحدة في نظري وفي نظر غيري من المصريين؛ لأنها عبارة عن طبق قطَّعوا فيه اللحم قطعًا صغيرة وكذلك الخضر ومزجوهما بالتوابل الحريفة، بحيث لا تستطيع تمييز صنف عن آخر، كما يصعب تمييز وجوههم أيضًا.

وليس لنا أن نقول إن طعامنا أفضل من طعام آخر؛ لأن مرجع ذلك إلى الذوق الشخصي.

فالذوق شخصيٌّ، ليس له ميزان إلا إعجاب صاحبه.

ومع ذلك فقد أدخلوا على المطعومات أمورًا لا يأكلها المرء، ولكنها تفيد في تقديره لها، أو كما يُقال تفتح الشهية، وهي تزيين الأطباق بالزهور والورق الأخضر، بحيث تُقدَّم قطعة اللحم في إطار من المنظر الجميل.

وليس اختلاف الطهاة في مقدرتهم على صنع الطعام بمقدار براعتهم في حسن التقديم والترتيب. وإذا تتبعنا الإنسان في بداوته وحضارته رأينا مائدة البدائي فطرية يلتهم فيها الفريسة دون إعداد أو

تجهيز، ورأينا مائدة المتحضرين تحفل بالشموع والورود والموسيقى. وتعقدت آداب المائدة، وأصبح الذوق متصلًا بهذه الزينة أكثر من اتصاله بطعم المأكولات.

ثم أطلقوا الذوق على المعنويات لا على المحسوسات.

والأصل في الذوق الحسي كما ذكرنا، أنه يميز بين الحلو والمر والملح والحامض، غير أن إجماع الناس على استملاح الحلو والإقبال عليه واستجادته، ولذلك وصفوا صاحب الذوق بالحلاوة والعذوبة.

وأصبح الذوق يُطلق على استحسان الجميل واستهجان القبيح.

وقد اصطلحت سائر اللغات على أن الآلة المميزة للجمال والقبح هي الذوق؛ لأن الأصل فيه هو هذا التعبير الشخصي.

ولك أن تقول: ولكن اللسان واحد في جميع الناس، ويستطيب الإنسان بالفطرة -إذا كان صحيحًا غير مريض- بعض الأشياء، وتعاف نفسه أشياء أخرى، فالذوق بالفطرة ميزان صحيح، ولا يختل هذا الميزان إلا إذا شذَّت الطبيعة، ولذلك قالوا: الذوق السليم. وهو موجود في أغلب الناس في أصل الفطرة.

غير أن حياة الإنسان قد ابتعدت عن الطبيعة ابتعادًا شديدًا، بحيث أصبح من العسير بيان هذه الفطرة الأولى.

والطبيعة لا تعرف ذوقًا حسنًا وآخر قبيحًا؛ لأن الحسن والقبيح، كالخير والشر من الأمور التقديرية، والطبيعة لا تزن، ولا تقدر، ولا تشعر ولا تعقل. إننا نعجب بحفيف الأشجار، وغناء الأطيار، وخرير

المياه، وغروب الشمس، وما إلى ذلك، فهل يطرب الشجر لحفيفه، أو الطير لغنائه، أو الماء لخريره، أو الشمس لغروبها؟ أو هل تفضل الشجرة أن تكون بجوار جدول من أن تكون إلى جانب صخرة، وهل تتذوق الشجرة طعم الغروب كما نفعل نحن.

لا بد في الذوق من الشعور، والجماد لا يشعر.

والحيوان يشعر ولكنه لا يتذوق.

فإن قال قائل: ولكننا نرى الحيوان يُقبل على الطعام ويعاف طعامًا آخر، وقد يأبى الكلب الذي تعوده شرب اللبن أن يأكل شيئًا آخر حتى لو كان جائعًا. وليس هذا بالذوق الذي نعنيه، بل هو إلف واعتياد، أو باصطلاح علماء النفس فعل منعكس متعلق بشرط، مما هو معروف مشهور. والذوق الإنساني ينشأ كذلك مع الإلف والاعتياد، فآداب التحية والمائدة، والزي، وترتيب الدور، وسائر أعمال الناس وسلوكهم آلية تصدر عن المرء وكأنها صادرة عن الطبع، حتى لقد قيل: العادة طبيعة ثانية. فأنت تتذوق الموسيقى الأوروبية بعد سماعها مرات ومرات حتى تألفها. وفي الإنسان حنين إلى الماضي، وركون إلى القديم، يطمئن له فيرتاح إليه. ولذلك كان أحد العناصر المكونة للذوق هو التقاليد.

وفي الإنسان رغبة إلى الجديد؛ لأنه يبعث على الفتنة، ويثير النفس، ويكون أليق بالظروف الطارئة من القديم البالي. فالذوق يتألف من القديم ومن الجديد، كالحياة نفسها التي تجمع بين الماضي والحاضر.

ويتألف الذوق من تجارب الحياة أكثر مما يتألف من الثقافة

النظرية والاطلاع. ومن أقوال العامة: إن الذوق شيء لا يوجد في الكتب، والمقصود من ذلك أنه يُكتسب من الخبرة العملية، فأنت لا تتذوق الشِّعر، إلا إذا سمعت مئات القصائد ورويت آلاف الأبيات، فتنشأ في نفسك ملكة الشِّعر. وتشتهر كل أمة بذوق خاص، فإيطاليا مشهورة بالفن والرسم والنحت، فينشأ الإيطالي يتذوق التصوير دون أن يعرف العلة في ذلك، أو كيف اكتسب هذا الذوق. ورأينا في باريس كيف تُنسق الزهور في البساتين العامة بحيث تأتلف منها ألوان في غاية الإبداع، وهذا شيء لا تجده في غير باريس؛ لأن أهلها نشأوا على ذلك، إلى جانب شهرتهم في أزياء النساء ومسارح الليل وملاهي الشباب. وقد ورثوا هذا كله عن حضارتهم قبل الثورة الفرنسية وكانت أعلى الحضارات، مما يؤكد ما ذكرناه من أن الذوق ينحدر مع التقاليد.

أما الأمة التي تخلو من الماضي ومن التقاليد فلا ذوق لها، مثل أمريكا، أعني الولايات المتحدة، فأهلها -على ثرائهم ووفرة دولاراتهم- يتصرفون كأغنياء الحرب. وقد رأينا جنودهم في مصر يجلس الواحد منهم في المترو وقد رفع رجليه في وجه جليسه.

وفي مصر -مع الأسف- لا ذوق يقوم على التقاليد؛ لأننا في عصر خرجنا فيه على التقاليد، ولا ذوق يستند إلى الجديد؛ لأن الشباب يجري على الفوضى. وكل شيء عندنا يخلو من الذوق، وفي كل خطوة نخطوها في الشارع نصطدم بما يُؤذي الشعور. ولو راعينا في أعمالنا الذوق، وتقدير الجميل، وإيثار اللائق، لوصلنا إلى ما نريد من حضارة من أيسر سبيل.

الطريق

ألم تضل الطريق يومًا ما وخصوصًا في عهد الطفولة؟ كل منَّا يذكر -ولا ريب- ذلك الماضي الذي أخذ يستقل بالخروج فيه، ويتأمل كيف يتصرف كي يصل إلى المكان الذي يريده، وكيف يعود منه إلى داره.

ومع ذلك، فقد تعلَّم الطفل السير في الطريق بعد أن أرشده أهله، وسلكه مرات عديدة، واستقرَّت في ذهنه النواصي والأمارات الدالة على الأمكنة والبقاع. ولكن العجيب هو سلوك الطريق لأول مرة، والاهتداء إلى الغاية بغير تعلُّم سابق. ولعلنا إذا رجعنا إلى الحيوان نشاهد كيف يفعل لعرفنا سرًّا من أسرار السلوك. وأنت تدري أن صنفًا من أصناف الحيوان -هو الكلب بوجه خاص- يذهب مع صاحبه إلى مسافات بعيدة، ومع ذلك يعود إلى الدار. قالوا: إن حاسة الشم في الكلب من القوة بحيث تجعله في إيابه يدرك الطريق الذي سار فيه من قبل. فالمرجع في ذهاب الكلب وإيابه خلال الطريق هو حاسة الشم لا العقل أو الذكاء.

ولقد حكى لي أحد الأصدقاء أن كلبًا ضالًّا تعلق به فعطف عليه وأسكنه معه، ثم ركب وإياه السيارة يومًا من الأيام، ولم يستطع الكلب أن يستقر في مكانه من السيارة فقفز منها على أن يعود إليها، ثم انطلقت السيارة وضل الكلب لأنه كان في مكان بعيد. قال صديقي: فلما عدت إلى الدار إذا بي أجد الكلب قد سبقني إليها، فحرت في تعليل ذلك.

وأعجب من ذلك وأغرب الحمام الزاجل، وكانوا يطلقونه في قديم الزمان محملًا بالرسائل في أوقات الحروب، فكيف يهتدي إلى الطريق؟ وهذا هو شأن الطيور المهاجرة كالسمَّان. فلما حار العلماء في تعليل هذه الظواهر الغريبة من أمر الحيوان، قالوا إنها الفطرة أو الغريزة، وقالوا إن في الحيوان حاسة تُسمَّى حاسة الاتجاه.

ولكن الأمر في الإنسان أشد تعقيدًا؛ لأنه لا يرجع إلى الغريزة، بل إلى العقل الذي يهديه سبيل السير في الطريق الموصل إلى الغايات، ويضله إذا غاب منه العقل والصواب. ونحتاج إلى العقل بوجه خاص إذا صادفتنا عقبة في الطريق نريد أن نذللها أو نتخطاها أو نلف حولها.

ومن هنا تعلم الإنسان اجتياز العقبات، كما تعلم اللف والدوران.

أما الحيوان فإنه يعجز عن اجتياز العقبات، بل لا يدركها.

قيل: جرب بعض علماء النفس تجربة طريفة؛ إذْ وضعوا إناء كبيرًا مملوءًا بالماء وفي وسطه حاجز زجاجي، وفي ناحية منه سمكة صغيرة، وفي الناحية الأخرى سمكة كبيرة، فلما رأت السمكة الكبيرةُ الصغيرةَ اتجهت نحوها وشقت طريقها إليها، وهذا اتجاه أو اندفاع

غريزي، فإذا بها تصطدم بالحاجز الزجاجي عدة مرات، ولم تعدل عن سلوك هذا السبيل إلا بعد مرات كثيرة، وأبت بعد ذلك أن تهجم على السمكة الصغيرة، حتى بعد أن أُزيل الحاجز الزجاجي من بينهما.

أما الإنسان فإنه يدرك العقبة فيزيلها أو يتخطاها أو يدور حولها، فإذا صادفه حجر في طريقه نقله ووضعه جانبًا.

ورأيت في أوروبا طرقًا غريبة في بابها.. إذا صادف الطريق واد أنشأوا عليه قنطرة، مهما يكن طولها ومهما تتكلف، وإذا قام جبل في طريقهم حفروا فيه نفقًا. ولم يكن الأمر كذلك في قديم الزمان؛ إذ كانوا يهبطون الوادي ويصعدون الجبل، أما اليوم مع الحضارة الحديثة فإنهم يطلبون الطرق المستقيمة دون لف أو دوران.

وتتميز الحضارة الإنسانية بإنشاء الطرق المعبدة؛ حتى يسهل على الناس الانتقال من مكان إلى آخر، ولا تزال بعض الطرق التي أنشأها الرومان موجودة حتى الآن. ولما أخذت مصر في طريق التقدم اهتمت بإنشاء الطرق وتعبيدها، ولا تزال آخذة بذلك؛ لأن الطرق في الأمة كالشرايين في جسم الكائن الحي. تُرى إلى أين تتجه هذه الطرق؟

إنها تُفْضِي إلى الأمكنة التي يلتقي فيها الناس يتبادلون المنافع والحاجات، ولقد عرفنا هذه الأماكن فهي تُسمَّى الأسواق، وهي قلب الجماعة النابض، فالإنسان يحتاج إلى السير في الطريق ليتجه إلى غاية محدودة، هي غاية اقتصادية، هي الكسب أو الحصول على حاجته في شتى صورها كالطعام أو الملبس وغير ذلك، أو إلى الحاجات الأولية

في منابعها كمناجم الحديد والذهب، ولذلك عبَّد قدماء المصريين الطرق في الجبال التي توصل إلى المعادن النفسية لحاجتهم إليها.

ولكن الطريق ليس ذهابًا فقط، ولكنه ذهاب وإياب، وصعود وهبوط، والمسلكان مختلفان؛ لأنك قد تصل إلى غرضك وتشق إليه الطريق ولكنك تعجز عن الرجوع، كالذي حكاه القدماء في أقاصيصهم من أن غزالًا عطش مرة فنزل بئرًا ليشرب منها، حتى إذا ارتوى عجز عن الصعود من البئر، فمر به ثعلب، وقال له: كان يجب عليك أن تفكر في الخروج قبل ورود الماء.

والطريق هنا صعبة؛ لأنها صاعدة والصعود شاق، ولذلك كان صعود الجبل أصعب من هبوطه، وقالوا: في أمثالهم: «إن هذا الشيء صعب المرتقى».

ومثلوا التقدم بالرقي، والانحطاط بالهبوط، ومرجع ذلك إلى المشقة التي نلقاها في ارتقاء الطريق الصاعدة، وكيف نذلل العقبات التي نلقاها.

ولكن الطريق إذا كانت مسطحة، فالذهاب فيها والإياب منها يختلف عن الصعود والهبوط، ولو أننا إذا أزحنا هذه العقبات التي يلقاها الصاعد لكان أمرهما واحدًا. فما وجه الخلاف بين الذهاب والإياب؟ إنه خلاف في الاتجاه، وفي معرفة شيء به يمتاز الإنسان على الحيوان هو الفرق بين اليمين والشمال. ولعل هذا يُدخلنا في أمر آخر هو استعمال الإنسان يده اليمنى دون اليسرى حتى ليُعد اليساريون من الشواذ، فإدراك اليمين من الشمال هو انعكاس أو تصور فكري

للشيء الواحد من طرفيه. سُئل صغير: من أخوك؟ قال زيد. قيل له ومن أخو زيد؟ فأجاب ليس له أخ؛ لأنه لم يستطع أن يتصور أن الأخوة تشترط وجود الطرفين في آن واحد.

فمعرفة الإنسان اليمين والشمال أكبر الظن أنها جاءت من معرفة الإياب بعد الذهاب، وبذلك عُرف ما يُسمَّى في علم الرياضة والطبيعة بالمكان ذي الأبعاد الثلاثة. ولكن كيف يكون للزمان ذهاب وإياب؛ لأن طريق الزمان إلى المستقبل على الدوام، على عكس المكان الذي ندور فيه في كل اتجاه. ومع ذلك فإذا كانت طبيعة الزمان هي التطلع إلى الأمام، فإننا نرى كثيرًا من الناس يعودون مع الذاكرة إلى الوراء، ويدفنون أنفسهم في أحشاء الماضي، وهذا هو التأخُّر الشديد. وليس معنى تقدم الإنسانية ورقي الجماعة البشرية إلا شق الطريق نحو الأمام، نحو المستقبل، وعدم التلفُّت إلى الماضي.

هذه هي الطرق المادية التي سلكها الإنسان سيرًا على قدميه ليصل إلى نبع ماء أو زرع ونماء، أو حيوان يصيده، فعبَّد لذلك الطرق وارتادها وذللها وسلكها صاعدًا هابطًا ذاهبًا آيبًا. والطرق العقلية شديدة الشبه بالطرق المادية، حتى لقد سمَّى العلماء مناهجهم في البحث التي يسلكونها للوصول إلى الحقائق بالطرق، كطريق الاستقراء. وسمَّى المتصوفة الذين يريدون الوصول إلى الله منهجهم إلى بلوغ هذه الغاية بالطريق، وسُمِّي الصوفي بالسالك أو السائر أو المسافر، وقالوا منازل السائرين وزاد المسافرين، وكل ذلك تشبيه لهذا الملك الروحاني بالطرق المادية التي نسير بالأقدام عليها. واختلفت الطرق حتى قال الشاعر في ذلك:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطُرُقُ الحَقِّ مُفْرَدَةٌ

وَالسَّالِكُـــونَ طَرِيقَ الحَقِّ أَفـــــرَادُ

لا يُعرَفُونَ وَلا تُدْرَى مَقَاصِدُهُم

فَهُم عَلَى مَهــلٍ يَمشُـــونَ قُصَّـــادُ

وتعددت الطرق الصوفية كما هو معروف عندنا في مصر، وقام على رأس كل طريقة شيخ له مريدون، غير أن هذه الطرق التي كانت في أول أمرها روحانية، بعيدة كل البعد عن شوائب المادة، غرضها الوحيد معرفة الله والوصول إليه، إذا بها تنحرف وتنغمس في شوائب المادة، ويشتغل أصحابها بطلب المال.

وإذا كانت الطرق المادية -في العصر الحديث- لم تعد تحفل بالعقبات التي تصادفها فلا تدور حولها، بل تشقها إذا لزم الأمر وتزيحها من طريقها، فكذلك أصبحت الطرق العقلية في العصر الحديث لا تحفل بالعقبات، وتريد أن يكون التفكير مستقيمًا يصل إلى الحق من أيسر سبيل. وهذا هو الطريق الحق واضح مستقيم لا لف فيه ولا دوران، وهذا هو الطريق المستقيم. ويُقال لمن سلك سبيل الرذيلة إنه ضل الطريق؛ لأنه ابتعد عن طريق الفضيلة والخير، ولذلك دعا المؤمنون الله في صلواتهم بقولهم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦- ٧].

❊ ❊ ❊

السوق

يُحكى أن صحيفة إنجليزية أرادت التنذُّر على القراء، فأعلنت أنه سوف يُقام في يوم كذا بضاحية كذا معرض لحمار الوحش المخطط، والمعرض سوق، فذهب إلى ذلك المكان قوم كثيرون يبلغون الآلاف ولم يجدوا شيئًا. وفي اليوم التالي نشرت الصحيفة أن سوق الحمير قد أُقيمت، وتفرج الناس بعضهم على بعضهم الآخر.

فأنت ترى كيف يُساق الناس إلى السوق كما تُساق الأغنام. واللفظة في اللغة العربية من ساق يسوق، يعني دفع يدفع.

وفي الحق أن السوق تجتذب الناس إليها، ويجدون في أنفسهم دافعًا لا يكاد يُرد إلى الذهاب إليها، إما للتطلع والمشاهدة، وإما للبيع والشراء.

وقديمًا حكى فيثاغورس الفيلسوف اليوناني صاحب الرياضة والموسيقى أن الذين يذهبون إلى الألعاب الأولمبية أحد أصناف ثلاثة: صنف يشترك في الألعاب يطلب الفوز في العدو أو القفز وما إلى ذلك، وصنف يذهب لكسب المال بالبيع والشراء وهم الجمهور، وصنف ثالث لا يطلب المال أو السلطان، بل المشاهدة والتأمل أو النظر، أو

كما نقول باللغة العامية الفرجة والتفرُّج. ومن هذا النظر المحسوس أطلقوا القول على النظر العقلي، والنظَّار أو أصحاب النظر العقلي هم الفلاسفة. كانت الألعاب الأولمبية، ولا تزال، أسواقًا يجتمع فيها الناس من كل صنف، فهم يحتشدون لهذه الأمور الثلاثة البيع والشراء، وطلب الغلبة والفوز، والتأمُّل والنظر.

البيع والشراء هو الأصل الذي من أجله أُقيمت الأسواق، أما النصر والظفر، والبصر والنظر، فعارضان لقطع الوقت والتسلية.

هكذا كانت السوق في العصور البدائية، قبل انبثاق فجر العقل وظهور التفكير.

هي المكان الذي يلتقي فيه أفراد الجماعة؛ لتبادل الحاجات الضرورية في المعاش وحفظ الحياة.

وتمتاز الجماعة بأمرين: التعاون والمحاكاة.

فكل فرد يؤدي وظيفة لا يؤديها غيره لأنه يختص بها، فهذا يزرع القمح، وهذا يطحنه، وهذا يخبزه. وتجد من يغزل الصوف خيوطًا، ثم ينسجه نسيجًا ينفع في الكساء. وهناك البنَّاء والنَّجار وصانع الأحذية وما إلى ذلك. وكلما ارتقت الجماعة تميزت بالتنوّع والاختصاص وكثرت أصناف الصنَّاع. فلا بد بعد ذلك من سوق يلتقي فيها النسَّاج بالخبَّاز، الأول يأخذ خبزًا ويعطيه بدلًا منه نسيجًا.

هذه الصورة البدائية للسوق، الغرض منها التبادل الذي سُمِّيَ فيما بعد بالبيع والشراء عند استعمال المال. ولا نزال في مصر نشهد

السوق التي تُقام في أعماق الريف في أحد أيام الأسبوع، ويذهب إليها الفلاحات يعرضن الدجاج والبيض والجبن والزبد وهذه المنتجات الريفية. غير أن المدنية دفعت الأسواق إلى الاختصاص، ولا تزال أحياء القاهرة تحمل الأسماء الدالة على ذلك مثل: سوق الفراخ وسوق الاثنين وسوق السلاح.

ثم سيطرت الدولة على الأسواق، فتدخلت في تنظيمها وإقامتها وتشريع اللوائح التي تسير بمقتضاها، مثل سوق الخضر والفواكه، وسوق الأوراق المالية، وهذه تُسمَّى «البورصة».

ولقد قالوا عن السوق إنها مبتذلة تعرض فيها حاجات الإنسان من طعام وشراب، وهذه البضاعة لا يشتغل بها إلا «السوقة» ويترفع عنها الأشراف. وصفة العامة وحدهم بنزول الأسواق وَهْمٌ. وكما أن السوق مكان تُباع فيه الحاجات المادية، فهو مكان كذلك تُباع فيه الحاجات الفكرية. كانت أسواق العرب في الجاهلية أمكنة يجتمعون فيها للتجارة، ومعارض للأدب والشِّعر، وكان الشعراء يتبارون في سوق عكاظ.

وللأدب سوق تُباع فيها نتائج القرائح المدوَّنة في صفحات الكتب. حكى ابن سينا سيرة حياته، قال: إنه كان يومًا في سوق الورَّاقين، فرأى شخصًا يعرض كتابًا صغيرًا، فأخذه الورَّاق ودفعه إلى ابن سينا فأبى شراءه، فقال له: هذا رخيص أبيعه لك بدرهمين، فاشترى الكتاب، فلما كان في الطريق، رأي أنه تحقيق أغراض كتاب ما بعد الطبيعة للفارابي،

فانفتحت له مغاليق ذلك الكتاب؛ لأنه كان يحفظه عن ظهر قلب ولا يعرف معناه، وفرح ابن سينا لذلك، وصلى لله وتصدق على الفقراء.

فكل اجتماع يتبادل فيه أفراده ما معهم، سواء أكان ذلك ماديًّا أم معنويًّا، جدًّا أم لهوًا، فهو سوق. ومما يؤسف له أن الأسواق التي يؤثر المصريون الاجتماع فيها هي المقاهي، فهي أسواق التسلية واللهو، ولو أن بعضها يُعد أسواقًا حقيقية للتجارة، يلتقي فيها أصحاب المصالح للاتفاق على البيع والشراء.

والمدارس والجماعات هي أسواق العلم، يذهب إليها الطلاب يتلقون العلم عن المدرسين، فالمدرس يبيعه والطالب يشتريه، وإذا لم يدفع الطالب الأجر دفعته الدولة من مالها.

وهناك أسواق تظهر وتختفي بظهور الدافع إليها، مثل سوق الانتخابات للمجالس النيابة، فهي أمكنة للاجتماع؛ لأن النائب يهيئ الدعوة للناخبين يعرض فيها نفسه ويبين صفاته. وتُشْتَرى فيها الأصوات بأساليب شتى، بعضها بالمال الصريح وبعضها بما يساوي المال. كنت رئيسًا للجنة انتخابية في البرلمان السابق، فلاحظت وفدًا من الناخبين دخلوا للتصويت وقد لبس كل منهم «بشكيرًا» أبيض جديدًا على رأسه، وعلمت أن النائب المرشح هو الذي أهداها إليهم -ولا فرق بين الهدية والرشوة في هذه الحال- وقد يكون الثمن وعدًا بخدمته، وما أكثر وعود المرشحين، فهي كلمة يسهل الرجوع عنها. وقد بلغ من براعة أحد المرشحين أنه كان يقسم الجنيه نصفين، يُعطي

الناخب أحدهما قبل إعطاء الصوت، ويُبقي الآخر إلى ما بعد التصويت تأكيدًا للضمان.

فهل تشك بعد ذلك أن الانتخابات أسواق للبيع والشراء.

والخير الذي ينبغي أن يصدر عن النفس دون ثمن أو أجر أصبح له سوق، يسمونها بالسوق الخيرية، فيها جميع صفات السوق المعروفة؛ إذ تُعرض بعض الأشياء الرمزية، يشتريها الأغنياء بثمن كبير للإنفاق منه في أوجه البر والإحسان.

ويتوقف نجاح البائع في اجتذاب المشتري والتأثير فيه بشراء البضاعة على أمور كثيرة: فمنها حسن العرض، ومعرفة أهواء الناس، ولطف المدخل في الكلام لتزيين البضاعة وبيان فضلها. والمرجع في ذلك كله إلى العقل وصناعة الكلام.

* * *

مع الركب

- اللهـــــــو
- الثقـــــــة
- التقـــــــدم
- الإضـــــراب
- اللائق والواجب

اللهو

الدنيا مملوءة بالمتاعب والمصاعب، أو هكذا تظهر للناس، أو الأصح أن الناس يميزون ما يقع لهم، فيقولون إن بعضه نقمة وبعضه الآخر نعمة. وسمُّوا النقم مصائب. وقد يرى الواحد منا غير ذلك، فيرى حسنًا ما ليس بالحسن عند غيره، والحقيقة أن الواقع لا مرد له. ولا يوصف الخير والشر، أو الحسن والقبيح إلا في أوهامنا وتقديرنا، فلو فقدنا التقدير والتمييز ما وصفنا الأشياء بقيمة ما.

الخلاصة أن الإنسان يُبتلى بالمصائب ولا بد له من احتمالها والصبر عليها؛ لأن وقعها ثقيل قد يؤدي إلى الضرر بصاحبها، بل قد يُودي به.

وقد سمعنا عن قوم نزلت بهم خسائر مالية جسمية فأصيبوا بالسكتة القلبية وماتوا لساعتهم. ومن أغرب حوادث الانتخابات الماضية، وفاة طالب ترشيح لم يزكِهِ حزب من الأحزاب. وكثيرًا ما ينتحر المصابون بالفشل كقائد الجيش أو الطالب في الامتحان. والرغبة في الموت دليل على الهرب من الحياة التي لا تجري مع الهوى، وتبعث على الرضى، وتشيع اللذة بالنصر والظفر.

ليس من الضروري أن يكون الهرب من الحياة بالتخلص منها جملةً بالموت. فغريزة الحياة قوة يحسب لها كل حساب، ولو تيسر لكل إنسان سئم الحياة أن ينتحر، ما بقي على ظهر الأرض إنسان.

وعندئذ يلجأ الناس إلى الحيلة.

والحيل شتى ، منها النسيان الذي قد يمحو من صفحة الذهن كل أثر للمكاره، وهذه استجابة طبيعية الغرض منها حفظ الحياة.

ومنها الانغماس في الخمر أو المخدرات، ولذلك إذا أرادت الحكومة مكافحة المخدرات في مصر، فعليها أن تعالج الداء من أصله، فتعمل على إزاحة الهموم عن النفوس، ومن المشاهد أن استعمال المخدرات ينتشر عقب الحروب لما سبق أن عانته الشعوب، وليست الرغبة في التخدير إلا حيلة يلجأ إليها صاحبها للنسيان؛ فالنسيان هو الأصل الذي يدفع إلى كل ذلك، وهو الغاية المقصودة.

ومن وسائل النسيان الانصراف إلى عمل يشغل البال ويلهي صاحبه عن المصائب، ومن هنا سُمِّيت هذه الأعمال باللهو؛ لأنها تلهي عن غيرها. وأصناف اللهو كثيرة تختلف باختلاف الناس، وتعدد أمزجتهم، وتميز بيئاتهم، وتنوع ثقافاتهم، هذا إلى اختلاف النشأة والسن والطبيعة والهوى.

فالأصل في اللهو ما ذكرناه؛ نعني الرغبة في تسلية النفس عن المصائب وصرفها عن الهموم، وهو لذلك ليس مقصودًا بالذات، ولو كان مقصودًا لسُمِّي عملًا تشتغل به، وتستثقله، وتحس بتبعته، وتضطر

إلى حمله، مع ما يترتب على ذلك كله من أعباء.

والأصل في اللهو أنه استجابة طبيعية للتسلية لا تعمُّد فيها، ثم تحس النفس بهذا الدافع إلى عمل أي شيء آخر فيه حركة ظاهرة. وتختلف حركات الناس: هذا يهز رجله، وهذا يعبث بشاربه، وثالث يحك ذقنه، ورابع يعد حبات المسبحة. وأعرف شخصًا إذا نزل به هَمٌّ وارتبك نسي عصاه. ثم تصبح هذه الأمور لوازم لا يستطيع صاحبها التخلص منها، ولكل منا لوازمه التي لا تفارقه.

وقد لا يكفي هذا اللهو الصغير العابر، فينصرف المرء إلى عمل يستغرق وقته، ويستنفد نشاطه، ولا بد من ذلك، أي من شيء يصرّف المرء فيه طاقته، ولذلك كان اللهو ظاهرة نفسانية واجتماعية أيضًا؛ لأنك لا تجد أمة من الأمم يخلو أهلها من اللهو.

أما الأمة التي تريد أن تنهض، فإنها تنظم ألوان اللهو، وتصرفه إلى ما يعود بالفائدة، حتى لا يكون مجرد عبث لا يُجدي. وأقول -وأنا آسف- إننا في مصر لا نجيد العمل، ولا نحسن اللهو. ولذلك أسباب كثيرة:

الأول: أن حياتنا لا تزال تجري على سنة حجاب المرأة، على الرغم من خروجها سافرة الوجه، فللرجال أنديتهم وللنساء اجتماعاتهن، ولا تزال المقاهي -والحمد لله- عامرة بالمتسكعين -من الشباب والشيوخ- الذين ينفقون الوقت في لعب النرد أو الورق أو شرب الخمر أو النظر إلى النساء، والتحديق فيهن وهن غاديات رائحات،

وليس هذا لهوًا يليق بأمة ناهضة. والأمر كذلك في مجتمع المرأة، حيث يشتغلن بالفارغ من الحديث والتافه من الأمر، وحيث يدور الحديث عن الرجال، كما يدور حديث الرجال عن النساء، وهذا ضرر الحجاب. ولا تزال الفتاة البعيدة بروحها عن الفتى في الجامعة، ولا بد من وقت طويل تتم فيه مشاركة الرجل للمرأة مشاركة حقيقة في المجتمع. فإذا تم ذلك تغير اللهو تغيرًا عظيمًا؛ لأن عملك الذي تلهو به تريد به إعجاب الجنسين معًا لا جنس واحد فقط، كما يبعد الناس عن الاستغراق في التفكير الجنسي الذي يمنعهم من التفكير في أي شيء آخر.

والثاني: أن اللهو فن أو صناعة، وكل فن يحتاج إلى إعداد وتعلُّم وتعليم. وقد نظرت الأمم المتحضرة في هذا الأمر، ودوّنوا الكتب المطولة في أصناف الهوايات، وكيف يستفيد منها طالبها، وكيف يجيدها في وقت الفراغ. وأغلبها من قبيل الفنون الجميلة كالرسم، والتصوير، وزراعة الزهور، والعزف على الآلات الموسيقية، وما إلى ذلك. وقد بنوا الدور في أوروبا لتحقق هذه الأهداف، فاشترطوا أن يكون في كل دار حديقة صغيرة يزرعها صاحبها بنفسه، لا للاستغلال، بل للتسلية وقطع الوقت واللهو. وأظن انك سمعت عن رئيس وزراء إنجلترا الذي كان يشتغل في حديقته بيديه.

يقوم البيت في الغرب على ثلاثة أشياء: مكتبة تغذي العقل، و«وبيانو» يغذي الروح، وحديقة يعمل فيها الجسم ويتنفس. والبيت المصري في الوقت الحاضر يخلو في الغالب منها جميعًا. ولقد كانت

البيوت القديمة أكثر ملاءمة للحياة؛ فيها فناء واسع يزرع جانب منه، كما يقتني أهل الجيل السابق بعض الكتب. أذكر أنني حين ارتقيت من الطفولة إلى الصبا، وتركت عبث الأطفال ولعبهم في الحارة التي كنا نسكن فيها، ورغبت في شيء آخر ألهو به وأقطع به الوقت، اكتشفت عند أبي -رحمه الله- كثيرًا من الكتب، أغلبها دينية، وبعضها أدبي مثل الأغاني لأبى الفرج، والأدب الكبير لابن المقفع. وقد قرأت هذا الكتاب الأخير وأنا في الثانية عشرة، فكان له أعظم الأثر في نفسي حتى اليوم.

والثالث: أننا كأمة لا نحب الفن، ونعتقد أنه عبث وهزل وحطة وحرام. وأكبر الظن أن نظرة رجال الدين وحكمهم على أغلب الفنون بتحريمها أو استهجانها، هو الذي صرف الناس عن الموسيقى والغناء والشعر والتصوير والنحت. وهذا هو السبب في انصراف الفن الإسلامي إلى الزخرفة الهندسية لا إلى تصوير الأحياء خشية عبادة الصور.

وأمة لا فن فيها لا حضارة لها.

لأن الفن سبيل إلى صرف الطاقة في شيء جميل تلهو به النفس وتستريح إليه، فتحتمل أعباء الحياة.

أما اللهو الذي نفعله في حياتنا الحاضرة، فهو -كما ترى- لا خير فيه ولا غناء؛ إذ يضيع الوقت ويقطعه، ولكنه لا يبدد السأم ولا يذهب بالهم، ولا يخفف نازلة، أو يزيل مصيبة.

الثقة

كنت وأنا شاب صغير السن أثق في كل شخص ولا أضع أحدًا موضع الشك، وقد مرت بي أحداث كثيرة علمتني الحذر والشك، ورأيت منها إلى أي حد يكذب الناس، وإلى أي حد يخدعون غيرهم، ويبدون خلاف ما يبطنون. وأقرب مثال لذلك أني قابلت منذ أيام رجلًا -أو الأصح أنه قابلني- بالقرب من محطة حلوان، وقال لي: هل الطريق إلى الجيزة بعيد؟ قلت: نعم، ولكنك تستطيع أن تمشي في شارع كذا وكذا. قال: إني رجل لست قاهريًّا، وقد جئت من بلدتي ماشيًا، وليس معي مال، ولو أني ركبت الترام... وتذكرت في الحال ذلك الوجه، لقد قابلني منذ بضع سنين في العباسية، وقصّ عليَّ نفس القصة بألفاظها، وصدقته في ذلك الحين، وأعطيته بل أجزلت له العطاء، فضحكت في سري، وأعطيته قرشًا، مع أنني عادة لا أمنح السائلين في الطريق؛ لأنهم يتخذون من التسول حرفة، وفي التصدق عليهم تشجيع للبطالة.

فإذا قبلت هذا الغش من شخص لا أعرفه كهذا الشخص، فكيف أفهم غش الصديق الذي منحته ثقتي، وأنزلته منزلة أخي بل نفسي، وأصبح موضع سري، وكشفت له دخيلة أمري. لقد كان لي صديق من هذا الضرب. وأقسم أنني ما حزنت لشيء بمقدار ما حزنت لانكشاف أمره، حتى لكأنني فقدت ابنًا من أبنائي.

لذلك لم يكن من الغريب أن يجري المثل السائر بهذه الحكمة «سوء الظن من حسن الفطن»، مع أنها تخالف كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وهذه مشكلة دارت في ذهني والتمستُ لها الحل. هل أثق بالناس، أو أُسيء الظن بهم؟ وهل أضمن الوفاء ممن وثقت فيهم، وقد أصبح الوفاء عزيز المنال، إن لم يكن مستحيلًا، كما زعم الشاعر القديم حين قال: إن المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخل الوفي.

وقد عولت في حل هذه المشكلة على الثقة بالله عليه توكلت وإليه أنيب. ولعل ما انكشف لي من خصال الناس الرديئة وخيانتهم للعهد ونقضهم للمواثيق، إنما كان سببًا في زيادة المعرفة بالله.

ولكن الدنيا ليست ربًّا وعبدًا فقط، بل هي عباد يتصل بعضهم ببعضهم الآخر، يتعايشون ويتعاملون ويتصادقون. والناس مضطرون إلى المعايشة، نعني الشركة في المعيشة، وإلى تبادل المنافع والحاجات، وإلى المصادقة وهي المودة وانكشاف النفس، ولا بد في ذلك كله من الثقة التي تؤكد معنى التعاون والاعتماد على الغير، حتى يستقيم أمر المجتمع ويتماسك بنيانه، كما جاء في الأثر: الناس للناس كالبنيان يشد بعضهم بعضًا.

فإذا قلبتَ النظر في أفراد المجتمع وأنظمته ومؤسساته، رأيت أن الرابطة التي تجمع الفرد بالفرد، وتصل الأفراد بالأنظمة والمؤسسات، وهي الثقة التي ينحل بفقدانها بنيان المجتمع مهما يُفرض عليه من قوانين.

ومصدر الثقة حياة الأسرة، ومصدر الشعور بالثقة حياة الطفولة؛ لأن المولود لا حول له ولا قوة، بل يعتمد على أمه في رضاعته وهي قوام طعامه، وفي تأمينه من الخوف والجزع. وهي تقبل على ابنها بدافع من الفطرة المتأصلة في غريزة المرأة وطبيعة الأنثي، فتهب له نفسها وتغذيه بلبنها، وهو بضعة منها حتى توفر له الحياة. فلا غرابة أن ينشأ الطفل يثق في أمه وفي أهله، ما داموا يرعون مصالحه ويهتمون بأمره. فهو ينام مطمئنًا لا يخشى انتهاكًا ولا اغتصابًا، حتى إذا شب عن الطوق، واتصل بغيره من الأطفال والأغراب، وجد بعضهم ذئابًا تريد اغتياله، وانتهاب ماله، والاعتداء على حقوقه. ويوصي الآباء أبناءهم باليقظة والحذر وعدم الثقة في الناس، ولا يطمئنون أن يدعوهم وحدهم، بل يرسلونهم إلى المدرسة مع خادم. فينشأ الطفل وقد وعى ما الثقة، وما الحذر، وما الخيانة.

أقول إلى جانب ثقتي بالله بعد أن فقدت الثقة بالناس، أصبحت أطمئن إلى الكتب وأركن إليها. والكتاب كما قيل صديق لا يمل، يعطيك ولا يأخذ منك، تقرؤه إذا مللت فيسليك ويسري عنك، فإذا سئمت القراءة ألقيته جانبًا فلا يغضب ولا يحتج. وهو إلى ذلك صورة من أفكار الأدباء الممتازين، فكأنك تشتري إنسانًا يتحدث إليك بقروش قليلة... غير أن الكتاب مع هذه المنافع الجزيلة، مجموعة من الأوراق والحروف، ليست فيه حياة الإنسان الذي يتأثر ويؤثر، ويستمع ويتكلم، فلا غنى عن الناس والاتصال بهم في أي حال.

ولذلك عولت على قاعدة تريح قلبي، هي أن أعامل الناس كما هم

عليه في الواقع، لا أغالي في طلب الأمانة، وما عدت أغضب من أحد، فهذه هي أحوال الناس، ولكني لا أخون الأمانة ولا أضيع ثقة من وضع ثقته فيَّ، أي أنني أفعل الواجب، مع قطع النظر عن النتائج أو سلوك الناس.

ولقد تدهش كيف تنهض أمة صغيرة العدد وتنتصر على أمة أخرى أعظم منها عددًا، إذَنْ فاعلم أن السر في ذلك هو ثقة أفراد الأمة بعضهم في بعضهم الآخر. وكان ذلك شأن العرب في إبَّان نهضتهم وعند ظهور الإسلام، فقد أعلن محمد -عليه السلام- الرسالة فآمنت به السيدة خديجة، ووثق به أبو بكر فسُمِّي لذلك الصدِّيق، ثم أخذ عدد المؤمنين الواثقين بالرسول الأمين يزداد شيئًا فشيئًا، حتى انتشرت الدعوة، وظهر الوعد الحق، وانتصر العرب بعد ذلك على أقوى دولتين في العالم المتحضر، وهما الفرس والروم، مع كثرة عددهم ووفرة عددهم.

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تفسير هذه الظاهرة التي تشبه المعجزة، وعندنا أن تفسيرها الصحيح هو شيوع الثقة بين نفوس المسلمين، فكانوا كالبنيان المرصوص.

فلما تفشت الأهواء في الشرق، وتطلع الطامعون إلى الخلافة، شاع الحذر وانعدمت الثقة، وكان أول معول هدم الإمبراطورية الإسلامية حتى تفككت بعدها إلى دويلات متنافرة، مأساة الرشيد وجعفر البرمكي، ومصدرها شك الخليفة في نوايا وزيره وفقدان الثقة بينهما.

وعلة الشرق اليوم هي أزمة الثقة بين أفراد الأمة الواحدة، وبين كل أمة وأخرى.

لأنه كما يفقد الفرد ثقته بصاحبه، تفقد الأمة ثقتها بالأمة الأخرى، والثقة هي أساس المعاملة. وليس ما نراه في الوقت الحاضر من انقسام العالم إلى معسكرين كبيرين: أمريكا من جهة، وروسيا من جهة أخرى، إلا أزمة ثقة وانعدام تعاون. ولا أمل في الصلح والمهادنة إلا إذا عادت الثقة إلى القلوب.

وفقدان الثقة دليل على الخوف، وللناس الحق في ذلك، وما بالك بسلاح كالقنبلة الذرية أو القنبلة الهيدروجينية يفتك بمدينة بأسرها، فيذهب بملايين الأرواح في لمح البصر؟ أليس للناس الحق في الخوف، بل الهلع والفزع؟ وكيف تريد ممن يملأ قلبه الخوف أن يطمئن أو يثق في عدوه؟

ولذلك طلعت علينا هيئة الأمم ومجلس الأمن بالمبادئ الأربعة وهي الأمن من الفقر والخوف وحرية الرأي وحرية الدين.

فهل تنتصر المبادئ والآمال، ويسمو الإنسان على المطامع والأهواء.

إذا تبدد الخوف عادت الثقة، وإذا عادت الثقة حلّ السلام.

* * *

التقدم

قال صاحبي: أي نوع من التقدم تقصد فهو كثير، أتريد التقدم في العلوم، أم في الصناعات، أم في المخترعات، أم في الصحة العامة، أم في المجتمع؟

وسكت لأن الجواب يحتاج إلى تأمل.

وتأملت فرأيت أن لفظ التقدم -الذي يجري على الألسنة بوجه خاص في العصر الحاضر- من الألفاظ المستحدثة التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر، فهو بضاعة أوروبية وفدت إلينا مع الحضارة الغربية الحديثة.

أما القدماء فلم يعرفوا التقدم، بل قالوا هذا أفضل من ذاك، وقالوا بالأرقى والأدنى، وذكروا الرقي والارتقاء. ونظر ابن خلدون في أحوال الدول، فرأى أنها تمرّ بأدوار من الرقي والانحطاط، أو التقدم والتأخر.

فالتقدم من المعاني الإضافية التي لا تُفهم إلا بالنسبة إلى شيء آخر، أي بالنسبة إلى التأخر لأنه يقابله.

وإذا كانت الجماعات الإنسانية تتقدم وتتأخر، فذلك ناشئ من سيرها إلى الأمام أو إلى الخلف، والأمام والوراء أمران نسبيان

اعتباريان، أما الثابت الذي لا شك فيه فهو هذا السير، ولذلك قالوا سيرة الدولة كما قالوا سيرة الشخص. وأما الحكم على هذه السيرة بالرقي والتقدم أو الانحطاط والتأخر، فمسألة أخرى فيها كثير من الخلاف. ولذلك كان مؤرخو العرب -كالطبري وابن الأثير- على صواب في وصف تواريخهم بالسير، فيما عدا ابن خلدون الذي نظر في أحوال الأمم فرأى أنها تخضع لنواميس طبيعية واجتماعية في نشأتها واكتمالها وزوالها. وسمَّى الكمال تقدمًا والزوال تأخرًا، وبحث في الحضارة وأسباب العمران. فلا غرو أن يقترن معنى التقدُّم في الدول بمعنى الحضارة.

ولقد نظر قوم في الحضارة البشرية أهي من باب التقدم أم من قبيل التأخُّر. وتساءلت جامعة ديجون في فرنسا في القرن الثامن عشر هذا السؤال وطرحته للبحث، وأعلنت عن جائزة لأفضل من يكتب في موضوع الحضارة وأثرها في تقدم البشر. ونال الجائزة الأولى جان جاك روسو، الذي أظهره هذا البحث وشهره وجعله في عداد المفكرين والفلاسفة، وكان له رأي طريف هو أن الحضارة الحديثة سبب من أسباب التأخر والشقاء لا التقدم والارتقاء، وأن أفضل حياة تلائم الإنسان هي تلك التي بثَّها الله في الناس بالفطرة الغريزية والطبيعة المتأصلة، فكان روسو على رأس القائلين بالمذهب الطبيعي، ومن أقواله التي استهلَّ بها كتاب العقد الاجتماعي «وُلد الإنسان حرًّا ولكنه مقيد بالأغلال في كل مكان». فالخير عنده في رجوع الإنسان إلى المعيشة الطبيعية، والشر في الابتعاد عنها، وابتداع هذه الصور

الإنسانية المملوءة بالشرور. ولم يقف روسو عند هذا الحد، بل أراد أن يطبق هذا النظام على كل شيء في الحياة، ففي التربية يجب أن يُترك الطفل حرًّا من كل قيد حتى ينمو أكمل نماء. ولكن الرضيع عندما يُولد يُلف بالأقمطة التي تحدّ من حركة أعضائه، وهذا هو الشر.

ولكن المجتمع قد خطا خطوات واسعة باعدت بينه وبين المعيشة الفطرية البدائية، ولم يعد في الإمكان أن نرجع عن هذه الصور من الحياة. ويكفي أن تتصور أن الناس في مصر سوف يخلعون ملابسهم ويمشون في الطرقات وفي داخل الدور وفي كل مكان عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، لا يلبسون شيئًا يسترون به حتى عوراتهم، لتتبين ابتعاد هذا الاقتراح من أن يكون عمليًّا. ومع ذلك فهو اقتراح ممكن، وقد ظهرت في أوروبا نواد يعيش المشتركون فيها في عري تام.

قد يقول قائل: التقدم في العلوم هو التقدم الذي به تمتاز الإنسانية، مثل الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وغير ذلك، وبخاصة بعد وصول العلماء -في العصور الأخيرة- إلى معرفة أسرار الكون، حتى لقد اهتدوا إلى تركيب المادة، وعرفوا سر الذرة وأطلقوها من عنانها.

نقول هذا حق، ولا ينكر أحد فضل المعرفة وشرف العقل، ألم يذكر الشاعر:

لوْلاَ العُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَـــــمٍ

أَدْنَى إِلى شَـرَفٍ مِنَ الإِنْسَـــانِ

ولكن العقل في الإنسان يقابل الغريزة في الحيوان، فقد ألهم الله الحيوان أن يقضي حاجته بالفطرة، ووهب الإنسان العقل ليقضي هذه الحاجات. والحاصل واحد؛ لأن كلًّا من الحيوان والإنسان يُولد ويعيش ثم يموت، يستوي في ذلك من عاش بغريزته أو من عاش بعقله وحكمته، بل قد يكون الحيوان أكثر سعادة من الإنسان، والسعادة هي الغاية من الحياة. وإذا لم تكن السعادة هي الغاية، فما هو الغرض من الحياة إذن؟

فإذا سلمنا بأن السعادة هي مطلب الإنسان، فالمشاهد أن الجهَّال أكثر من العقلاء سعادة، كما قال الشاعر القديم:

ذو العَقلِ يَشقَى في النّعيمِ بعَقْلِهِ

وَأخو الجَهالَةِ في الشّقـــاوَةِ يَنعَـــمُ

إلى أين تقودنا هذه العلوم؟

تُطلب العلوم لثمرتها أو فائدتها التي تعود على البشر، والثمرة التي نشاهدها هي ثمرة مادية؛ لأن العلم مادي، فهي تفيد في بناء منزل، ونسيج ملبس، وإضاءة مدينة، وركوب مطية، وما إلى ذلك مما يدعو إلى رفع مستوى المعيشة. ومع ذلك فهذا كله مما يدخل في باب الصورة الخارجية ولا يمس الجوهر. وقديمًا كانت للشعوب صور من الحياة في بناء دورهم وخلق صناعتهم لا نزال نعجب بها حتى اليوم، كذلك الذي نشاهده من آثار قدماء المصريين. ثم انقرضت حضارتهم، وتقلبت على مصر حضارات أخرى، ولا يزال المصريون يعمرون أرض مصر.

ولنفرض أن الإنسان استطاع بالعلم أن يصل في صاروخ إلى القمر، فما جدوى ذلك، وما أثره في تقدمه؟ إذا استطاع العلم أن يجعل من الإنسان كائنًا آخر أرقى من البشر -كالملائكة مثلًا، ولو أنني لا أعرف على وجه التحديد ما الملائكة- لكان العلم قد أخذ بيد الإنسان في طريق التقدم. وأكبر الظن أن الإنسان سوف يظل هو الإنسان يولد ثم يموت، ويذهب بذهابه كل شيء.

قالوا: التقدم هو التطور، ثم زعم العلماء أن الإنسان لم يكن كذلك منذ أقدم العصور، بل تطور من كائن آخر أكثر انحطاطًا وأدنى إلى القرد شبهًا، ثم سار شوطًا في طريق التقدم فظهر عنده العقل، واستعمل يده وصنع الآلة التي تيسر له القطع والطعن، واهتدى إلى النار، وعرف الحديد والنحاس حتى بلغ عصر الكهرباء.

وظهرت في ألمانيا -بوجه خاص- مذاهب تزعم أن الإنسان قد ملك عنان الطبيعة وأخذ يتحكم فيها. وطلع نيتشه بمذهب «السوبرمان» أو الإنسان الأعلى مما هو عليه في الحاضر. فانظر إلى مصير ألمانيا الآن وكيف ذُلّت بعد عِزّ، وتأمل مصائر الدول الغابرة التي أصبحت أثرًا بعد عين.

وبعد، لا أريد أن أدفع الشك إلى نفسك من جهة الحضارة والتقدم والرقي، بل إن مصر اليوم في أشد الحاجة إلى الأخذ بأسباب التقدُّم، وهي أسباب مادية مستمدة من العلم؛ كي تستطيع الوقوف على أقدامها بإزاء الدول الأخرى، لكني أريد أن تحتفظ بشيء يقف في سبيل هذه المادية الجارفة هو الأخلاق.

الإضراب

الإضراب ظاهرة حديثة على الإنسانية وهي أكثر حداثة في مصر، ويبدو أنها وفدت إلينا مع واردات المدنية الغربية بما فيها من محاسن ومساوئ. ويعدها الغربيون مشكلة اجتماعية أَلَّفوا في حلها الكتب، وخصصوا لعلاجها البحوث وبذلوا فيها الجهود، ولا نزال نسمع عن إضراب عمال الفحم أو الشحن في أمريكا وإنجلترا مع رقيهما وسلطانهما وثرائهما. وهذا دليل على أن المشكلة مشكلة العصر كله شاعت في أغلب الأمم، فأصبحت عالمية لا تكاد دولة تخلص من آثارها. والإضراب داء له أسباب كثيرة نفسانية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وهي جميعًا متعاونة في إحداث هذه الظاهرة، أو قُلْ إن الإضراب هو الأثر البارز لتفاعل هذه العوامل النفسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مثله في ذلك مثل الخُرَّاج الذي يضرب في ذراع المريض دليلًا على فساد الأجهزة الباطنية، وحاجة الجسم إلى التخلص مما تعرضت له من سموم.

وإذا تتبعنا تاريخ الإضراب في مصر، رأينا الأصل في الدافع إليه سياسيًّا يرجع إلى رغبة المصريين في التخلص من الاحتلال البريطاني، وقاد الحركة بعد الحرب الكبرى الماضية طلبة المدارس؛ لأنهم صفوة المثقفين والشباب المتحمس، ووافقهم الرأي العام على ذلك؛ لأن النفوس جميعًا قد امتلأت بالثورة، وآمنت بالحرية، ونزعت إلى الاستقلال، وأضرب الموظفون، فشُلَّت حركة الأداة الحكومية، ولم تُجْدِ حراب الإنجليز في إخماد نار الثورة، واضطروا إلى إعلان استقلال مصر، ورفع الحماية عنها.

وكان ذلك الإضراب مشروعًا يهدف إلى غاية محدودة، حتى بلغنا الغاية، ووصلنا إلى الغرض المنشود، فكان من الواجب أن تنتهي هذه الخطة باستنفاد غرضها، فتفرغ مصر بعد ذلك لترتيب البيت، والنهضة بالمرافق الداخلية، وترقية شؤونها، حتى يصل إنتاجها وثقافتها وحضارتها إلى المستوى اللائق بها. ولكننا مع الأسف تنكبنا هذا الطريق وانصرفنا إلى عمل من شأنه شل أجهزة الإنتاج، مما يدعو إلى خسارة شديدة، في وقت نحن في أشد الحاجة إلى تعبئة جميع الجهود لاستكمال أسباب النهضة والتقدم، بل لقد شاع الإضراب في طوائف ينبغي أن تكون أبعد الناس عن التفكير فيه.

ولنبدأ بالدوافع النفسانية لأنها ألصق بنا، ولا بد أن تستحيل البواعث الخارجية إلى دوافع باطنة. والمحرك لأعمال الإنسان أحد أمور ثلاثة: الرضى أو السخط أو الانسياق، فإذا شعر بالرضى أقبل على عمله، وإذا شعر بالسخط انصرف عنه، وإذا لم يشعر لا بسخط

ولا برضى، سار كالآلة مسوقًا دون وعي. والإضراب عن العمل مظهر من مظاهر السخط ودليل على عدم الرضى. وقد يكون الإضراب مظهرًا من مظاهر الاحتجاج الصامت أو السلبي، فكثيرًا ما نرى الطفل يضرب عن تناول الطعام أو اللعب أو الاستذكار إذا لم يكن راضيًا، ولن يزيده عقاب أهله له إلا إمعانًا في خطته. ولن يصلح شأنه إلا إذا عرفنا علته. وعلة الرضى عند الطفل ثلاثة أمور: الشعور بالحرية والمحبة والتقدير. والحرية المطلقة هي الفوضى بعينها، ومن الضروري أن يتعلم الطفل الخضوع للنظام والإقبال على أعمال قد لا تروقه، وكثيرًا ما تحد من حريته، فإذا لقي من البيئة محبة وتقديرًا رضي بهذه القيود وأقبل على عمله. والرابطة التي تربط بين والديه وبينه هي عاطفة المحبة، وهي التي تجعل الأب يشقى في سبيل ابنه، وتجعل الأم تتحمل المشاق الشاقة مع السهر الطويل والإقبال على العمل؛ كي تنجز ما يطلبه ابنها وتجهز له ما يريده. والأمر الثالث التقدير، أو جزاء العمل؛ ومن الطبيعي أن يشعر صاحب العمل بتقدير الناس له، وإلا فإنه ينقطع عن عمله حتى إذا وجد ترحيبًا بهذا العمل وتقديرًا له -وذلك بصورة أدبية أو مادية- استمر في أدائه. فالإضراب كظاهرة نفسانية فردية ترجع إلى فقدان المحبة وانعدام التقدير.

ولسنا نسمِّي انصراف الفرد عن عمله إضرابًا إلا من قبيل التجوز، والأصح أن يُسمَّى فتورًا أو «هربًا»؛ إذ الواقع أن الفرد حين لا يجد محبة ولا تقديرًا، يهرب من هذا العمل وينصرف إلى غيره.

أما الإضراب بمعني الكلمة، فظاهرة اجتماعية صاحبت الحضارة

الحديثة منذ القرن التاسع عشر، واشتدت في القرن العشرين، وترجع إلى اختراع الآلات وانتشار المصانع بدلًا من العمل الفردي، وظهور الوعي الاجتماعي في الطبقات.

فما الفرق بين المصنع والعمال، وبين الوالد وأبنائه أو «المعلم» و«صبيانه».

الفرق الأول أن الوالد أو المعلم إنسان، وأن المصنع جماد أو آلة، ونحن نحب آباءنا أو معلمينا ونرضى بما فيهم من خير ومن شر، ولا يمكن أن نحب المصنع أو الآلة إلا على سبيل التشبيه، ومن هنا فقد العامل عنصرًا هامًّا من العناصر الدافعة له على العمل، نعني عنصر المحبة، سواء محبة صاحب العمل -إذْ لا يوجد صاحب عمل بمعنى الكلمة مع اتساع المصانع واستخدام الآلاف من العمال- أو سواء محبة العامل لعمله؛ لأنه لا ينتج عملًا كاملًا يستطيع أن يعتز به ويلقى عنه التقدير؛ لأن العامل الحديث يؤدي في المصنع جزءًا يسيرًا جدًّا من أجزاء الإنتاج. نريد أن نقول إنك لن تجد عاملًا واحدًا يصنع السيارة، بل يشترك في صنعها مئات من المختصين، ولا يستطيع أي واحد أن يعتز بما عمل، أو يتباهى به، أو ينال التقدير عليه.

كان العامل في الزمن القديم يشعر بالرضى لأنه أنتج شيئًا إنسانيًّا، أما اليوم فأصبح الإنتاج صناعيًّا بل آليًّا، وأصبحت الآلة هي كل شيء، وحلَّت محل الإنسان. وكان إنتاج العامل القديم خلقًا أو إبداعًا يدخل فيه الميل الشخصي والمزاج والتجربة، على حين يقف عامل اليوم أمام

الآلة ليديرها لا أكثر، فهو لا يخلق شيئًا. وقد كان الفيلسوف برجسون على حق حين رأى نشوة النفس ولذة الروح تنشأ عن الخلق والابتكار.

وهناك عامل اجتماعي آخر نشأ عن تجمع العمال في مكان واحد وكانوا قبل ذلك متفرقين، ولذلك يشيع الإضراب بين العمال في المصانع الكبرى، ولا تجد ذلك بين الزرَّاع لتفرقهم. ولهذا التجمُّع آثار في سرعة انتشار الآراء، إلى جانب انتشار التعليم، ونيل العمال قسطًا كبيرًا من مبادئ العلوم، حتي يتمكنوا من إدارة أجهزة الآلات الحديثة المعقدة.

وهناك عامل اجتماعي يرجع إلى علة نفسانية، ويفسر نزعة إضراب الطلاب وبعض الطوائف في مصر، هو الشعور بالنقص ومحاولة الارتفاع إلى مرتبة أعلى أو الاحتفاظ بهذه المرتبة.

وقد أدى انتشار التعليم، ورقي العمال، وسخطهم على عملهم الآلي، إلى التطلع نحو حياة مادية أرقى. ولو جُمعت ثروة أمة من الأمم ووُزعت بالتساوي على جميع أفرادها، ما نال كل واحد ما يطمع فيه، ولا سيما بعد ازدياد عدد السكان نتيجة تحسين الصحة العامة. فها هنا مشكلة اقتصادية حسابية خطيرة تقتضي العمل على زيادة الثروة العامة، وهو أمر ليس حله سهلًا؛ إذ يتوقف على الموارد المحدودة. وقد ذهبت بعض الدول إلى الحد من زيادة السكان، وطالبت بعض الدول بمستعمرات مثل ألمانيا قبل الحرب الأخيرة، ولكنها هُزمت. أما غلاء الأسعار فمشكلة طارئة بعد الحرب وعلاجها في مصر يحل مشكلة إضراب الطوائف.

هذه عجالة رسمنا فيها الخطوط الرئيسة للمشكلة، ويقتضي العلاج الصحيح النظر في جميع الأسباب، فمن الناحية السياسية يجب على الأحزاب الابتعاد عن استخدام الطلبة في تأييدها، وخصوصًا بعد حصول مصر على الاستقلال.

ومن الناحية النفسانية يجب أن تبتكر الوسائل التي تشيع الرضى والبهجة في النفوس، مثل المهرجانات العامة ووسائل التسلية (الإذاعة- السينما- التياترو- الموسيقى- والاحتفالات الدينية العامة)، وتيسير قضاء أيام العطلة في الحدائق وعلى شاطئ البحر وما إلى ذلك، ثم ربط النفوس بمحبة شيء عظيم، وهو الوطن، حتى يشعر العمال أنهم يعملون من أجل شيء محدد، ومن الناحية الاجتماعية ترقية أحوال المعيشة وتأمين العمال اجتماعيًّا، ومن الناحية الاقتصادية تنسيق مصادر الثروة في الأمة وحسن توزيعها.

❊ ❊ ❊

اللائق والواجب

لم يسبق له رؤية القاهرة؛ فهو أجنبي من باريس، قال لي: ما هذا؟ قلت: هذه جنازة، وقد اختلف إليها المشيعون، ووقفتْ من أجلها حركة المواصلات. قال: أيفعل الناس ذلك بدافع اللائق أم الواجب؟ فقلت على الفور: إنه واجب.

ولما أخذت أفكر بيني وبين نفسي، رأيت أن الأمر ليس في هذه السهولة التي أجبت بها؛ إذ ما الفرق بين اللائق وبين الواجب، وهل يمكن أن تصدر أعمالنا عن شيء آخر غير اللائق وغير الواجب؟

نعم كثيرًا ما نفعل دون أن ندري لأي غرض، أعني نصدر عن الإلف والعادة من دون تفكير أو شعور، فنصبح كالآلة التي تدور وتجري بقوة الدفعة الأولى، وهي في آخر الأمر آلة، ولذلك قيل إن أغلب أعمال الإنسان آلية، وذهب عالم نفساني اسمه بيير جانيه إلى القول «بالآلية النفسانية»، ولكن مذهبه لم يحظَ بالشهرة، مع أنه على حق.

والفاصل بين الإنسانية والحيوانية هو الخروج على هذه الآلية التي ينعدم معها الشعور.

ونعود إلى أعمالنا التي نفكر فيها، ونشعر بها، أتكون في سبيل اللائق أم الواجب؟

وعمل اللائق هو اختيار «الجميل» كما قال القدماء منذ أفلاطون إلى الفارابي وابن سينا. وكان أفلاطون يطلب أمورًا ثلاثة هي الحق والخير والجمال. واشتق العرب من الجمال الفعل فقالوا: هذا يجمل بنا وهذا لا يجمل، أي هذا يليق وهذا لا يليق، فكان القدماء يراعون الجمال في سائر أعمالهم، ويتجنبون القبح، ويوحدون بين الحسن والخير، وبين القبيح والشر.

فإذا طبقنا هذا المبدأ على أعمالنا الآن رأينا أنها تبعد عن الحسن والجمال واللياقة. تضرب الحكومة الأرض وتخرج ما في بطنها بحجة إصلاح المياه أو المجاري أو التليفون، ثم تترك أحشاءها على ظاهرها قذى في الأعين، وليس هذا من اللائق في شيء، مع أن الأصوات قد بُحَّت تطالب بتغيير هذه الحال. ثم تنظر إلى كثير من الشوارع وقد خلت من الأشجار على جانبها فذهب عنها رواؤها وجمالها. وقلّ أن تجد صاحب دار يفكر حين يشيدها أن يزرع فيها حديقة يجملها بها، أو يضع الزهور داخل حجرات الدار. وتقع العين على الناس وهم في ملابس قذرة، وهيئة زرية، مما يتنافى مع أبسط مبادئ النظافة والترتيب.

هذا في الأعمال الظاهرة ومظاهر العمران، أما في الأعمال الخلقية فالأمر أدهى وأكثر قبحًا، فانتشار الرشوة والمحسوبية والكذب والخديعة والحسد وما إلى ذلك، كلها أخلاق لا تليق بمن يزعم الرقي والتهذيب.

ويمكن أن ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى هي زاوية الواجب.

وأول من فطن إلى أهمية الواجب وجعل الأعمال الأخلاقية مستمَدَّة منه، هو كانط الفيلسوف الألماني، فقد كانت حياته صورة من فلسفته، وسيرته مستمدة من مبدأ الواجب الذي نادى به. عاش في القرن الثامن عشر، وامتدت حياته إلى الثمانين، ولم يرحل، ولم يتزوج، وأخضع حياته اليومية لنظام دقيق لا يتحول عنه. ففي الساعة الخامسة إلا خمس دقائق بالضبط -صيفًا كان الوقت أم شتاء- يدخل عليه خادمه في مشية عسكرية ثم يصيح بصوت عال: «لقد حان الوقت» ويطيع كانط هذا النداء كأنه الجندي في الجيش، فلا يتأفف أو يضجر، ولو ظل طول الليل في أرق. وفي الخامسة يجلس إلى المائدة فيتناول فنجانًا واحدًا من الشاي، ثم يدخن بعد ذلك غليونًا لا يدخن بعده طول اليوم، ثم يذهب حوالي السابعة إلى حجرة المكتبة. وفي الساعة الواحدة إلا ربع بالضبط ينادي الطاهي قائلًا: لقد دقت الساعة. وإذا خرج للنزهة بعد الظهر، ضبط الناس ساعاتهم على ميعاد خروجه؛ لشدة دقته في ضبط الميعاد وإخضاع نفسه للنظام.

هذه السيرة صورة من فلسفته في الأخلاق، أو الواجب الذي يُقصد لذاته، الواجب الذي يصدر بإرادة الإنسان فيكون القانون الذي يَخضع له ويُخْضِع العالم معه. ولقد غيّر كانط مذهب الأخلاق تغييرًا كبيرًا، بعد أن كانت قبل ذلك تقوم على أساس العرف أو التقاليد أو اللذة أو الجميل.

ولقد أثرت هذه الفلسفة في الأمة الألمانية أعظم تأثير خلال القرن

التاسع عشر والقرن العشرين، فأصبح الشعب -كما هو معروف- أعظم من يخضع للنظام، وأشد من يسرع أهله إلى أداء الواجب، من دون تفكير في مصلحة أو منفعة أو لذة. ولقد اعترف العالم بأسره للشعب الألماني بالتفوق والامتياز، وكاد أن يتغلب على سائر الدول، لولا هزيمته الأخيرة في الحرب، التي تضافرت سائر الأمم على إيقاعها به.

ونحن نرى أن لفظ الواجب يجري على ألسنتنا، ولكنا نقصد به شيئًا آخر خلاف الواجب الفلسفي الذي حدثتك عنه. فالواجب الذي نقصده هو العرف الاجتماعي، ولذلك يقدم أحدنا لصاحبه سيجارة فيقول هذا واجب، أو يقدم لضيفه فنجانًا من القهوة. وارتفعت الرشوة -وهي عمل ينافي الأخلاق- إلى مرتبة الواجب، فأصبح من اللازم إذا قضيت حاجة في وزارة أو مصلحة أهلية أن تقدم «الواجب» إلى الموظف الذي يقوم بالعمل. ومن الدلائل على ذلك أن إحدى دور السينما الأجنبية تقول في إعلانها: لا تعطِ الخدم بقشيشًا لأن الدار تجزل لهم العطاء.

أما الواجب الذي نقصده فليس مفروضًا من المجتمع على الفرد، بل هو نتيجة اعتقاد الفرد في ضرورته ولزومه وقيمته الخلقية. ولن يستقيم لنا أمر إلا إذا جرت أعمالنا لأنها واجبة. بصرف النظر عن عواقبها، فنقول الصدق لأنه واجب، ولا نسرق خضوعًا للواجب، وهكذا.

غير أن من عيوب هذا المذهب أن الواجب الذي نفرضه، وقد يكون خيرًا اليوم لأنه يلائم الظروف الحاضرة، قد يتغير مع تغير

الظروف، وخصوصًا الواجبات الاجتماعية. فهذه الأمثلة التي ضربناها من الاحتفال بالجنازات، والاحتفاء بالضيوف، والإكثار من التحيات، تليق بالشعوب في مرحلتها الزراعية لا في حياتها الصناعية التي يزيد فيها عدد السكان، وتتشابك المصالح، ولا يفرغ الواحد لهذه المظاهر الخارجية التي تضيع الوقت.

ولذلك كان مذهب اللائق أجمل وأوفق، فهو يساير الأحوال المتغيرة، والمجتمع الدائم التطور، ولا يتنافى مع الواجب، بل هو أساسه. وأحسن مثال لذلك ما حدث في إنجلترا وألمانيا في هذه الحرب من تدمير المنازل، حتى لقد قيل إن ثلث بيوت لندن تهدمت، ومع ذلك لم يمضِ إلا وقت قصير حتى أُزيلت الخرائب المتهدمة، وزرعوا مكانها، فلم يعد يحس أحدٌ أن هنا وقعت الواقعة.

ونحن نرى في مصر خرائب الأوقاف منذ سنين، ولا تزال قائمة عنوانًا على عدم اللياقة.

* * *

التربية الصحيحة

دار الحديث بيني وبين أحد العمال -وهو أمي شيخ له أولاد كثيرون- سألته عن حال أولاده، فأجاب أن ابنه الأصغر طالب في المدارس الابتدائية. قلت له: وهل هو مُجِدّ؟ وماذا تنوي أن ترسم له من مستقبل، هل تلحقه بالمدارس الثانوية ثم العالية؟ فأجاب جوابًا فيه حكمة الفطرة السليمة، قال: ليس للولد رغبة في العلم، والعلم لا يُطلب إلا بالميل، وكل ما يميل إليه المرء يتقنه، وقد سألته أن يبقى حتى يتم التعليم الابتدائي، ثم يتعلم صنعتي فأبى، ورغب في تعلُّم صناعة الميكانيكا فوعدته بذلك.

هذا رجل على جهله حكيم، سليم النظر والإدراك والحكم.

أما أغلب المصريين -مع الأسف الشديد- حتى لو كانوا متعلمين، فإنهم أقل منه إدراكًا وأفسد حكمًا؛ ذلك أن أغلب الناس يطلبون لأبنائهم مستقبلًا لا يستند بحال من الأحوال إلى رغبات الطفل واستعداده وميوله. فهذه أم أو هذا أب، يرسم لابنه أن يكون طبيبًا أو مهندسًا أو مزارعًا، كأن أي مهنة من المهن يمكن أن تُشترى كما

تُشترى السلع. وهذا هو السر الأعظم في فشل سياسية التعليم عندنا؛ لأنهم يلحقون الطفل بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية؛ إعدادًا له أن يكون صاحب مهنة خاصة، وقد يكون أبعد الناس عن الاستعداد لهذه المهنة، فيرسب مرة ومرتين، ومع ذلك يلحّ عليه أهله ويصطفون له المدرسين الخصوصيين لتقويته، والنتيجة هي الفشل التام، حتى لو حصل على الدبلوم وأصبح طبيبًا أو مهندسًا وما إلى ذلك.

لماذا لا نترك الناس أحرارًا في اختيار أعمالهم، ما دامت شريفة، والحرية أساس النمو والتقدم. وقد كان هذا هو شأن المسلمين في عهودهم الأولى، واستمر ذلك التقليد إلى عهد قريب، حيث كان الأزهر، وهي أعلى معهد علمي، يقوم على الحرية التامة في التعليم. يجلس الشيخ لتدريس الحديث أو الفقه أو التفسير أو النحو أو البلاغة، ويختلف إليه الطلاب، فإذا لم يحب أحدهم درس الشيخ تركه إلى غيره، ولا يتقيد الطالب بحضور أو غياب، ولا يتقيد بسنة دراسية، وقد يظل طالبًا حتى يبلغ الخمسين أو الستين من العمر.

ولست أدري أتقدم التعليم في الأزهر بعد أن عدل من طريقته، وقيد نفسه بالمناهج والخطط، أم أن نظامه القديم القائم على الحرية التامة هو النظام الأفضل؟

ولا يتقيد التعليم في أوروبا وأمريكا بهذه القيود التي يفرضها الآباء على الأبناء. كل ما في الأمر أنه ظهرت مقاييس جديدة تقيس ميول التلميذ وتتعرف اتجاهاته، فتوجهه الوجهة الصحيحة. ولكنهم يتركون

الطفل أو الشاب حرًّا، واسع الحرية في اختيار طريق العلم الذي يؤثره.

إن مثل الطفل كالشجرة التي تحتاج في نموها إلى الأرض الواسعة والهواء الطلق لتتفرع في حرية، فإذا منعت عن الشجرة الماء والهواء أو المكان اضطرب نموها وعجزت.

أذكر عن نفسي مثالين يبينان كيف ماتت في نفسي نزعات لست أدري لو سايرتهما ماذا كنت أبلغ بعد ذلك. ففي الثانية عشرة كنت أقرض الشِّعر، وهو شِعر على أي حال، لست أدري أموزون هو أم ليس موزونًا، ولكني أذكر أنه كان هجاء في بعض الزملاء، وكنت أحب أن أقرأ الشعر وأحفظه، حتى إذا تقدمنا في الدرس، فرض مدرس اللغة العربية علينا شِعرًا سقيمًا لا تقبله نفس ناشئ في السنة الأولى الثانوية. وهل يستطيع تلميذ صغير أن يتذوق قصيدة النابغة «أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ»، فضلًا عن فساد الشرح. وانتهي الأمر إلى كراهة الشِّعر، والانصراف عنه، إلى درجة أنني لا أستطيع أن أمضي في قراءة قصيدة إلى نهايتها، ولا أحفظ إلا البيت أو البيتين. والخلاصة أن الحفظ يقوم على الميل، وأن ما تكرهه لا يثبت في الذاكرة، وهذه قاعدة هامة في الحفظ والتذكُّر. فلما ذهبت إلى الجامعة كان الدكتور طه حسين يلقي درسًا عامًّا في الشعر الجاهلي وكان يدرس النابغة الذبياني، فرأيت لأول مره كيف ينبغي أن يُدرَّس الأدب، وأحببته، ولكني لم أحضر إلا عامًا واحدًا، وكان الميل قد مات في نفسي.

ورغبت في الصغر إلى تعلُّم الموسيقى؛ وتعلمت الكمان، وكان المدرس يعزف المقطوعة مرة واحدة فيلتقطها ذهني وأعيدها بأصبعي، حتى بلغت درجة لا بأس بها. فهل تدري مَنْ قَتَل في نفسي هذا الميل وصرفني عن الفن؟ إنه والدي -رحمه الله- كان يقول كلما رآني أحمل الكمان ذاهبًا إلى المدرس: هل تريد أن تصبح «آلاتيًّا»؟ وكان أهل زمان يعدون الفنون الجميلة كالتمثيل والموسيقى والرسم ضروبًا من اللهو والفسوق والمجون، فضلًا عن مجافاتها لروح الدين، وهذه نظرة خاطئة، لم تتعدل حتى الآن تعديلًا تامًّا.

وكان أينشتاين يهوى الموسيقى ويقرض الشعر، وتعده المدرسة من أفشل التلاميذ وأخيبهم، حتى لقد تألم والده من التقارير التي كانت ترسلها المدرسة في كل شهر عن غباء أينشتاين وتأخره عن غيره من التلاميذ. فلما بلغ السادسة عشرة من العمر، قال له أبوه: يجب أن تكسب حياتك وتصبح نافعًا فتتعلم مهنة الآلات الكهربائية. وسخر الابن من هذه الفكرة ولم يرضَ بها، واستمر في هوايته الخاصة وهي قراءة الفلسفة والرياضة والتأمل في أسرار الكون، حتى أصبح أعظم عالم في العصر الحاضر.

ولم يكن نيوتن في حداثته يبشر بنجاح، وكان ينصرف إلى قرض الشعر وقراءته وإلى الرسم، ولكن أهله لم يعتقدوا في نجاحه «لشقاوته»، وأحبوا أن ينصرف إلى الزراعة، فأخرجته أمه من المدرسة، وأرسلته إلى الريف في الحقل. وكانت ترسله مره في كل أسبوع إلى السوق مع الخادم ليتعلم البيع والشراء. غير أن نيوتن كان يتخلص من

الخادم، فيدعه يذهب وحده إلى سوق المدينة، وينتظره عند شجرة يقرأ كتبه التي يحبها إلى أن يعود. وشك عمه في سلوكه فذهب يستقصي أمره، فذهب إلى السوق فرأى نيوتن جالسًا تحت الشجرة فوق الحشائش يحل مسألة رياضية، فقال: «عد إلى دروسك والله وحده يعلم أن تكون عالمًا كبيرًا، أم فاشلًا في حياتك». وأصبح نيوتن أعظم عالم، وصاحب قانون الجاذبية.

ولو أننا نظرنا في سيرة العلماء لوجدنا حياتهم في الأغلب على هذا النسق، وبخاصة العباقرة منهم، فلماذا نقيد الطفل ونفرض عليه ما لا يحبه وما لا يميل إليه.

والتربية الصحيحة هي التي تتكشف ميول الشخص، فتعمل على تنميتها وتغذيتها في جو من الحرية التامة، ولا يمكن أن يفرض العلم فرضًا على العقول.

❊ ❊ ❊

من الْغَوْر

- الضالة المنشودة
- النفس والروح
- انتقال الفكر
- الاتصال الروحي
- الأحلام
- الرؤيا الصادقة

الضالة المنشودة

الناس اليوم في حيرة، وهي حيرة ناشئة عن القلق، والقلق كما نعرفه مستمد من الخوف. فإذا كان الناس في حيرة، وقلق، وخوف، فلهم الحق كل الحق، وينبغي أن نلتمس لهم العذر؛ فلا تزال آثار الحرب الماضية قريبة من الأذهان، ولا تزال الجروح الدامية ماثلة للأبصار، لا في مصر وحدها، بل في سائر أنحاء العالم. بل لعل آثار الحرب وأخطار الغارات أقل في مصر منها في غيرها من الدول الأوروبية التي اجتاحتها قنابل الطائرات وغيرها من الأسلحة الفتَّاكة المدمرة، التي لم تعرف البشرية لها نظيرًا من قبل.

ولعل أهم أسباب الحيرة والقلق، والخوف بل الفزع، هو ذلك السلاح الجديد الذي لم يتم بعد خمس سنوات من عمره المشؤوم، ونعني به القنبلة الذرية. ولعل الناس في فزع أشد من أسلحة أفتك وأشد دمارًا من هذا السلاح الذي لمس الناس آثاره، وسمعوا أخباره.

فإلى أين المصير؟

أنكون على عتبة الآخرة؟ وهل نعيش لنرى اليوم الموعود ؟

ألسنا نرى هذه الأسلحة تفتك بالآلاف بل الملايين، ولعل فيها القضاء على البشرية بأسرها، فلا يبقى على وجه الأرض -كما كانت تحدثنا أساطير القدماء- ديار ولا نافخ نار؟

وإني لأتصور نهاية هذا العلم الإنساني وخاتمة هذه الحضارة التي خلقها الإنسان -كما يحدثنا التاريخ- في عشرة آلاف من السنين، منذ أن اهتدى إلى النار وإلى السلاح يشحذه من الحجر ثم من النحاس ثم من الحديد، أتصور أن نهاية العالم أن تكون بفناء الأرض وتناثر أرجائها في أجواز الفضاء، أو باصطدامها مع كوكب من الكواكب يبددها هباءً منثورًا أو هشيمًا تذروه الرياح، ولكني أتصور بكل بساطة، أن خاتمة الإنسانية بيد الإنسان، وأن آخرة الحضارة والمدنية -تلك التي ابتدعها العقل البشري، وخلقها خلقًا، حتى لقد خُيِّلَ إليه أنه شريك لله في خلقه فكفر، ولم يؤمن إلا بنفسه- سوف تكون من صنع هذا العقل نفسه الذي أشاد البناء، وأقام الحضارة على أساس عجيب من العلم العميق بطبائع الأرض.

وبذلك تنقرض الجماعة البشرية وتصبح أسطورة في جوف التاريخ، كما ذهب أهل عاد وثمود وغيرهم من أصحاب الحضارات التي حدثنا الله تعالى عنها في كتابه العزيز، وأثبت علماء الآثار وجودها بما اكتشفوه على وجه الأرض وفي جوفها من مظاهر المدنية الغابرة.

ولنا أن نتساءل، وهذه هي الحال التي وصفناها، والصورة التي

نلمسها ونراها، وهي حالة كما رأينا تبعث على الحيرة والقلق والخوف والفزع.

ما السر الذي يدفع الإنسان لأن يفعل هذه الأمور؟ وما الدافع الذي يسوقه إلى أن يؤذي نفسه ويضع حدًّا لحياته؟

وسؤال آخر: هل يمكن إذا عرفنا العلل والأسباب، وشخَّصنا الداء، أن نصف الدواء الذي يشفي الصدور من هذه الأدواء العنيفة، المتأصلة، القاضية؟

أما عن السر الدافع للإنسان، فإنه يكمن في نفسه التي بين جنبيه. ولكننا خرجنا من سر أصغر إلى سر أعظم.

ما هذه النفس الإنسانية التي توسوس له بالشر؟ وتدفعه إلى أعمال العنف والقسوة، وإيذاء بني جنسه، مما لا نجد له نظيرًا في عالم الحيوان؟

نحن نرى أن الحيوانات التي تعيش بغريزتها لا يعتدي بعضها على بعضها الآخر في داخل النوع الواحد، بل قد تتحارب الأجناس ولكنها تتألف فيما بينها ولا يقضي بعضها على بعضها الآخر؛ لأنها تعرف صالحها بالفطرة أو الغريزة. أما الإنسان فإنه بغريزته يعمل على حفظ بقائه من كل شيء يهدد كيانه، حتى إذا اهتدى إلى نفسه، وأحس بها وشعر بوجوده، وأخذ يوجه أعماله بمقتضى العقل، إذا به يأتي من الأعمال ما يخالف الطبيعة نفسها التي قضت أولًا وقبل كل شيء بالبقاء والوجود لا بالفناء.

فالنفس إذَنْ ليست شيئًا آخر إلا الشعور بالوجود. وشعور الإنسان بوجوده هو الشر. وهو مصدر الحيرة، والقلق، والاضطراب.

ولقد ظهرت قبل الحرب الأخيرة بفترة وجيزة في ألمانيا وفي فرنسا فلسفة حديثة جدًّا تُسمَّى «الوجودية»، زعم أصحابها أن هذا المذهب هو نهاية الفلسفة؛ لأنه يمثل شعور الإنسان بوجود نفسه. فماذا كان من أمر هذه الفلسفة؟ إنها فلسفة مبهمة لأن النفس الإنسانية مبهمة، غامضة، لم يستطع العلم منذ أقدم العصور إلى الآن أن يحلها أو يقول فيها كلمة صريحة، واضحة، حاسمة. فلما سئم العلم الكلام في النفس، ورأى أنه لن يستطيع أن يبلغ منها علمًا أو يكشف عن سرها الغطاء، قصر نفسه على النظر في السلوك الظاهر الذي نشاهده في الناس، فأخذ يصف أعمالهم وأزياءهم ومظاهرهم، ولكن الكلام في الظاهر لا يكشف عن الباطن كشفًا تامًّا.

وبقيت النفس لغزًا لا يُحَلّ. ولذلك كانت الفلسفة الوجودية أشد ضروب الفلسفة غموضًا، وأكثرها تعقدًا؛ لأنها تحاول كشف الستار عن النفس البشرية العجيبة التي نلمس آثارها ولا نراها. ومن آثارها التي نشاهدها، هذه الألوان من الشر الذي لم يعرف التاريخ له مثيلًا. وهل يوجد ما هو أقوى من إبادة الإنسانية شرًّا؟ ولذلك نرى أن عالم اليوم سوف يعود مرغمًا إلى أحضان الدين؛ لأن تقدم العلم العظيم، وما جلبه للإنسانية من حضارة جميلة، مريحة، في المسكن والملبس وسائر ضروب الحياة، كل ذلك لم يبعث الطمأنينة إلى النفس، بل أحل محلها هذه الحيرة، وهذا القلق، وهذا الشك، وهذا الخوف الذي يتردد بين جُنوب الناس جميعًا.

بقي أن نجيب عن السؤال الثاني وهو: هل يرجع الناس عن غيهم ويغمدون سيوفهم، ويتحولون عن طريق العلم الذي هو مصدر الشر؟ أظن لا، بل أعتقد أن العالم سائر في تيار جارف نحو العلوم، وأن هذا التيار هو الذي سوف يقضي على الجماعة البشرية التي عمَّرت وجه الأرض وبلغت في حضارتها الأوج، بل إني لأعتقد اعتقادًا جازمًا -ليس قائمًا على الوهم والخيال، بل على استقراء التاريخ نفسه- أننا نشهد في هذا العصر نهاية العالم.

فهل اقتربت الآخرة؟

لعل هذا الاحساس ناشئ عن نزعه من نزعات التشاؤم، أو عن نظرة سوداء، ونرجو ألَّا يكون هذا الإحساس صادقًا.

ونعود إلى الدواء الذي وعدنا أن نصفه للخلاص من ذلك الداء، وهو شعور المرء بوجود نفسه، أو بلغة الأدب الاعتزاز بالنفس.

لا يوجد إلا دواء واحد، أن ينسى الإنسان نفسه، فيعمل لغيره، وبذلك تقف الحرب ويحل السلام. ولكن هذه القضية لا تزال معروضة أمام العالم ولم يصل فيها السياسة أو الشعوب إلى نتيجة؛ فكل دولة تتمسك بنفسها، ولا تريد أن تنزل عن شيء من مطالبها. ولا ندري على أي نحو سوف يُصنع ذلك السلام، كأن العالم الذي برع في اختراع القنابل الذرية عاجز عن اختراع ذلك الدواء السهل اليسير الذي يتناوله الناس، فيحل السلم محل الحرب، وتتبدد هذه الأحوال النفسية التي تؤرق الناس في مضاجعهم، وهي أحوال الحيرة والقلق والخوف والفزع...

تُرى هل يصل أو يبلغ الإنسان إلى هذه الضالة المنشودة؟!

النفس والروح

اعترض على إنكار الزعم بوجود الروح منفصلة عن الجسم كثير من الأصدقاء المؤمنين بهذا الأمر، وقالوا لا يجوز أن ينكر مثلك، وقد آمن من قبل السير أولفر لودج وأمثاله.

وقبل أن أسوق هذا التجارب الشخصية التي لم أعلنها ولم أدونها بعد، أحب أن أذكر أنني لا أميز بين النفس والروح، فهما عندي بمعنى واحد. وقد وحَّد القدماء بينهما تارة، وفرقوا تارة أخرى، أما الذين ميزوا بينهما فقالوا إن النفس إنسانية والروح إلهية. النفس أمارة بالسوء وهي مصدر الشر، والروح من أمر ربي، وهي مصدر الخير. وللقوم تعريفات وتمييزات لا يعنينا الدخول في تفصيلاتها الآن.

وأحب أن أضع بين يديك خلاصة مذهبي أفلاطون وأرسطو في هذا الموضوع؛ لأنهما يمثلان قطبين متعارضين. يعتقد أفلاطون بثنائية الإنسان المركب من نفس وبدن، وهو يتابع في هذا اعتقاد أستاذه سقراط وفيثاغورس من قبله. وله أدلة على خلود الروح وبقائها بعد فناء البدن ذكرها في محاورة مشهورة بعنوان فيدون، نقلها إلى

اللغة العربية صديقنا الدكتور زكي نجيب محمود. أما مذهب أرسطو فالنفس عنده مبدأ الحياة، أو هي مجموع الوظائف الحيوية، فهي في النبات علة التغذي والنمو والتوليد، وفي الحيوان علة الإحساس والتخيل والنزوع، وفي الإنسان علة التعقل.

مذهب أرسطو أدنى إلى العلم الحديث، ومذهب أفلاطون خلاصة أساطير القدماء، ولا يثبت بالمشاهدة، وقد يؤيَّد بأدلة عقلية يصعب ترجيحها لدى ذوي العقول الراجحة.

والمشاهدة أصدق دليل على كل حال، وهي سبيل اليقين العلمي، ولو أن هناك أمورًا لا سبيل إلى الشك فيها علميًّا، ومع ذلك لا يمكن مشاهدتها، بل تُدرك آثارها فقط.

وأعود إلى نفسي أقصد «شخصي» أذكر ما وقع لي من تجارب.

في سن العاشرة، أو على التحقيق الحادية عشرة، وكنت صبيًّا لم أدخل سن الشباب، توفيت والدتي فحزنت لوفاتها حُزنًا شديدًا. وذات ليلة، وقد أويت إلى فراشي حوالي الساعة التاسعة، وقد تدلت الكِلَّةُ[1] فوق السرير، ولم يكن الضوء كهرباء، بل مصباح غاز قد خفت نوره، ذهبت في النوم أو شرعت في الدخول إليه. ومن الطبيعي -وأكبر الظن أن هذه هي طبيعة أغلب الناس- أنني لا أستغرق في النوم مباشرة، بل أظل فترة قد تطول قبل أن أغيب عن الحس. في هذه الفترة بين اليقظة والنوم، وفي هذه الظروف المحيطة بي من نور خافت، وشبه

(١) الكِلَّةُ : سترٌ رقيق مُثَقَّبٌ يُتَوَقَّى به من البعوض وغيرهِ . والجمع : كِلَلٌ . [المحرر].

غيبة، إذا بي أرى شبح أمي كأنه طيف أو خيال، هو على التحقيق هيكلها أو جسمها، إلَّا أنه يخلو من المادة بحيث لا يتبقى إلا الإطار الخارجي يملأه النور، ثم اقترب هذا الهيكل النوراني بسرعة حتى اخترق «الناموسية»، ونفذ إلى داخل السرير ولمس وجهي، أعني أني أحسست به، ثم عاد بسرعة كذلك، واختفى إلى غير عودة. اضطربت بعض الشيء، ولكني لم أخف أو أرتعب.

هذه هي التجربة الوحيدة التي حدثت في تاريخ حياتي ولم تتكرر بعد ذلك، ولم أحكها لأحد قبل الآن. وظللت أفكر في هذا الموضوع، أيكون ما شهدته جدًّا وحقيقة، أم وهمًا من تصوير الخيال؟

ويقول الروحانيون: هذه حقيقة لا شك فيها، وهذه هي الروح تختلف عن المادة الكثيفة الغليظة التي نشاهد عليها الأجسام المحسوسة المادية كالخشب والحديد أو أبداننا الحاضرة، ولا تقوم إلا على هيكل نوراني يُحدّ بحدود الجسم، وقد يتجسد إلى حد ما، وبذلك يمكن رؤيته، ويضيفون إلى ذلك أنهم استطاعوا تصوير الأرواح بالفوتوغرافيا.

ويقول المعارضون للمذهب الروحاني: هذه أضغاث أحلام، وأوهام في أوهام، وهلوسة من خلق الخيال، وهي أشبه بالرؤيا التي يشاهدها النائم، وكثيرًا ما رأى أحدنا في النور صور أهله يزورونه في الأحلام، وليست الرؤيا أرواحًا.

وأنتقل إلى تجربة ثانية قريبة العهد؛ إذ وقعت لي منذ شهر على

وجه التقريب. فقد اضطجعت ليلًا كي أدخل في النوم، ومرت فترة بين اليقظة والنوم، وأنا مغمض العينين، ثم أخذت أفكر في النفس وما يُقال من أنها شيء يلبس الجسم كما يضع المرء الثوب على البدن، وأنها مما يمكن خلعه كما يُخلع الثوب. وركزت فكري في ذلك حتى رأيت «نفسي» تنخلع عن بدني، وترتفع عنه في انسياب وهي بقدر البدن تمامًا حتى ارتفعت عنه بمقدار ما يقرب من نصف متر، وأحسست بهذه النفس أنها هي أنا، ولا شأن لي بهذا الجسد المُلقى تحتي، واستمتعت حقًّا بهذه النفس، وبقيت على هذه الحال بضع دقائق، ولم أستطع الانفصال، فعدت بنفسي إلى بدني. وكررت هذا العمل مرة أخرى، ولم أعد إلى التجربة بعد ذلك.

ثم تساءلت بعد ذلك: لقد كنت أنظر إلى بدني، وإلى نفسي المعلقة في الهواء فوق بدني، فما هذا الشيء الذي كان يتأمل كلًّا من البدن والنفس؟! أهو شيء آخر غير نفسي؟ أم أن الأمر كله وهم من الأوهام.

أتدري ماذا يُسمِّي الروحانيون ما فعلت؟ إنهم يطلقون على هذه العملية «الطرح الروحي»، أي أن تطرح الروح بعيدًا عن الجسد المتصلة به، وقد سمينا الروح والنفس شيئًا واحدًا فيما قبل، ولعل الأوفق أن نميز بينهما، فتكون الروح هي التي انفصلت، وبقيت النفس مع الجسم؛ لأن مفارقة النفس للبدن موت وفناء.

حكيت هذا لصاحبي فقال: دع عنك هذا التخريف.

وشبيه بهذا التخريف ما ذكره أفلوطين الفيلسوف، وهو غير أفلاطون، عاش في الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي، وله كتاب اسمه التاسوعات، نُقل إلى العربية في عصر الترجمة ونسبوه إلى أرسطو باسم كتاب «الربوبية»، قال فيه ما نصه: «إني ربما خلوت بنفسي، وخلعت بدني جانبًا، وصرت كأني جوهر متجرد بلا بدن، فأكون داخلًا في ذاتي راجعًا إليها خارجًا من سائر الأشياء، فأرى أن ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجبًا بهتًا، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الفاضل الشريف الإلهي، ذو حياة فعالة، فلما أيقنت بذلك ترقيت بذاتي من ذلك العالم إلى العالم الإلهي، فصرت كأني موضوع فيها متعلق بها...».

ويقول الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في كتابه الإشارات: «ارجع إلى نفسك وتأمل، إذا كنت صحيحًا بحيث تفطن للشيء فطنة صحيحة، هل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك؟ ولو توهمت ذاتك قد خُلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيأة، وفُرض أنها على جملة من الوضع والهيأة بحيث لا تُنظر أجزاءها، ولا تتلامس أعضاؤها، بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيتها». وهذا أحد براهين ابن سينا على وجود النفس منفصلة عن البدن، ويُسمَّى هذا البرهان، الإنسان الطائر أو المعلق في الهواء.

فأنت ترى أن الفلاسفة قد تصوروا كما تصورت، أو قل إني تصورت كما تصوروا، ولكنهم صدقوا تصوراتهم وآمنوا بها واعتقدوا في صحتها، أما أنا فلم أجد فيها أكثر من تصورات وخيالات.

انتقال الفكر

من الظواهر التي لفتت الأنظار من قديم الزمان، ولا يزال المحدثون في حيرة كيف يعللونها، انتقال الفكر من شخص إلى آخر، أو انتقال الشعور، أو التأثير عن بُعد، وهو ما يعبر عنه باللغة الأجنبية بقولهم التلباثي (telepathy).

وقد نقول عنه أيضًا قراءة الأفكار فهي داخلة في هذا الباب؛ لأن انتقال الفكر أو الشعور أصل، وقراءة الفكر فرع من ذلك.

ويميز المحدثون بين انتقال الفكر وقراءته وبين الكشف أو الجلاء البصري، والمقصود من الكشف إدراك الأشياء في الحاضر عن بعد دون أن نراها، كالذي يكون في القاهرة فيرى حادثة تصادم وقعت في الإسكندرية، أو إدراك ما سوف يقع في المستقبل من أحداث.

أما انتقال الفكر، فهو معرفة الإنسان ما في ذهن صاحبه بغير واسطة الحواس المعروفة كالسمع أو البصر. ويعتقد كثير من الناس في إمكان ذلك، وكان الاعتقاد بين القدماء شائعًا في هذه الحقيقة، نعني أن ما يعمله أحدهم أو يفكر فيه يؤثر في غيره تأثيرًا معينًا مع بُعد المسافة

بينهما، بل لا يزال هذا الاعتقاد سائدًا في الشعوب البدائية التي تعيش في العصر الحاضر، وفي العامة من الناس.

وقد ترتب على هذا الاعتقاد أن سلوك القدماء والبدائيين والعامة، من حيث عوائدهم وتقاليدهم، يخضع لعقيدة انتقال الفكر والتأثير عن بُعد، ويُعرف ذلك عندهم بالسحر.

ومن عادات بعض القبائل أن رجالها حين يخرجون طلبًا للصيد، يمتنع أطفالهم في الكوخ من الرسم على الأرض؛ حتى لا تضلل هذه الرسوم طريق الصياد فيعجز عن العودة إلى داره.

ويُحكى عن نساء الهوتنتوت أن أزواجهن حين يذهبون إلى الصيد، يشعلن النار ويغذينها بالوقود حتى لا يقع الأزواج في مكروه. أما نساء الهايدا، فإذا ذهب أزواجهن إلى الحرب، لا ينقطعن عن الرقص وغناء الحرب، وإذا توقفت إحداهن قُتل زوجها.

ولا يزال السحر الأسود شائعًا في الريف المصري حتى اليوم، ويعتقد في أثره الكثيرون. وهو ضروب كثيرة منها أن يصور الساحر صورة من يريد إيقاع الضرر به في قطعة من الشمع أو دمية من طين أو عروسة من خرق، ثم يكتب عليها اسمه، ويقرأ على هذا التمثال المرض الذي يريد أن ينزل به، فلا يلبث الشخص أن يُصاب بهذا المرض. وروى القدماء وعلماء الاجتماع أن الساحر يطعن التمثال في قلبه بحربة، فإذا بالشخص يموت فعلًا. وطريق إبطال هذا السحر أن يلجأ الشخص إلى ساحر آخر يبطل هذا «العمل».

والربط الجنسي شائع بين الفلاحين في مصر، ويتكسَّب من هذه الصناعة كثير من المشعوذين.

وهذا كله وَهْمٌ لا ظل له من الحقيقة، وقد حضرت مرة مجلسًا زعم فيه أحد الحاضرين البراعة في استخدام الجن، وإبطال السحر الأسود. وروى أنه أطلق البخور وقرأ العزائم ذات يوم، فإذا الجن يحضرون «عملًا» كان مكتوبًا على ضلع حمار ميت مُلقى في أعماق النيل، ولم يكد يستحضر العمل حتى بطل السحر. قلت له إني لا أصدق ذلك، فهل تسمح بحضور جلسة من هذه الجلسات. وتهرَّب صاحبنا حين علم يقظتي وعدم إيماني. فلا تصدق شيئًا من ذلك؛ لأنها شعوذة ودجل.

وكما يعتقدون في إمكان إحداث الضرر، يعتقدون كذلك في إمكان ربط القلوب برباط المحبة. وقد سمعنا عن قوم أنفقوا كثيرًا من الأموال في سبيل اجتذاب قلب زوجاتهم أو حبيباتهم، بوسائل من السحر. فإذا حصل تبدُّل في قلب المرأة نسبوا ذلك إلى أعمال السحر، وقد يرجع ذلك إلى انتقال الفكر، والتأثير عن بُعد. ومن المُشَاهد أن الذين يفعلون ذلك يخلون إلى أنفسهم في مكان هادئ وفي عزلة تامة، بل وفي الظلام في بعض الأحيان، حتى يغيب الشخص عن هذا العالم المحسوس ليدخل في العالم غير المنظور. ويفعل الصوفية مثل ذلك حين يرغبون في الاتصال بالله، ومنهم من يزعم الوصول عند الغيبة عن الوجود، وهذا أيضًا من الأوهام التي تختلط بالعقول.

وإذا كان الناس في العصر الحاضر -مع تقدم العلم وانتشار

الحضارة- قد انصرفوا عن الاعتقاد في السحر، وعن التأثير في الآخرين من بعيد، فإنهم يعتقدون في انتقال الفكر وإمكان قراءته. كان القدماء يلجأون إلى السحر لإخضاع قوى الطبيعة والتأثير في الناس ودفع الضرر وجلب المحبة، أو بمعنى آخر فرض إرادتهم على كل شيء آخر. أما في العصر الحاضر، فلم يبقَ من الاعتقاد في انتقال الفكر إلا هذه التسلية الاجتماعية التي يفعلها بعض الناس عندما يلعبون الورق، وذهب عنه كل ما عدا ذلك من خرافات وشعوذة سحرية. ولا ينفي ذلك أن انتقال الفكر حقيقة من الحقائق الواقعة، وأنه ظاهرة نفسانية تحتاج إلى تعليل وإلى تفسير.

ولا يزال جماعة من المحدثين يعتقدون في وجود الأرواح، وفي أنها هي العلة في انتقال الفكر من شخص إلى آخر. وهذا أثر من اعتقاد القدماء بالسحر ووجود الأرواح. ثم لبست حلقات الروحانيين منذ القرن التاسع عشر ثوب العلم، بل لقد اشتغل بها كثير من العلماء المعروفين في إنجلترا وفرنسا وأمريكا، وانتقلت هذه المباحث إلى مصر على نطاق ضيق. ويقوم جوهر هذا المذهب على الاعتقاد في بقاء الروح بعد فناء البدن، أي بعد الموت، وفي تأثير النفوس في النفوس وهي على قيد الحياة، وفي إمكان انتقال الفكر وقراءته. وأنت تسمع عن جلسات تحضير الأرواح -لأنني لم أشهد هذه الجلسات ولم يسمح لي المشتغلون بها حضورها مع إلحاحي في الطلب- تسمع عن ظواهر غريبة من التنبؤ بالغيب والاتصال بأفكار الموتى، نعني بأرواحهم التي تتحدث إليهم.

وزعموا أن هناك ظواهر مادية تثبت صحة ما يعتقدون مثل تحرك المائدة، والكتابة من غير قلم، والكلام من غير متحدث إلى آخر ذلك. ولكن المحققين من العلماء قد أثبتوا شعوذة كثيرين من المشتغلين بالمسائل الروحية، ولا يزال هذا العلم قيد البحث والتجارب.

وإذا كان أغلب العلماء لا يعتقدون في إمكان هذه الظاهرة، ويرتابون في حصولها، ويعزونها إلى عدم الدقة في الملاحظة أو إلى التضليل والشعوذة، فإن فرويد -صاحب مذهب التحليل النفساني- يفسر الاعتقاد في انتقال الفكر عند بعض المحدثين بأنه أثر من العقلية البدائية، التي شاعت في الإنسان البدائي، وفي الأطفال، وفي المرضى بالأمراض العصبية، وهؤلاء جميعًا يسيئون تقدير قوة عقولهم؛ إذ يرون في الفكر مرآة للعالم الخارجي، ثم يضطربون بين عالم الفكر وبين العالم الخارجي وما فيه من نظام، ويعتقدون ان الفكر البشري يؤثر في الأشياء، وهذا هو مصدر السحر. وكثير من التقاليد القديمة، وعلة الأحلام وأحلام اليقظة، السبب في أوهام الأطفال، وتصرفات المرضى النفسانيين.

الاتصال الروحي

سألني أحد الفضلاء فيما كتبته عن النظر والبصر والعين، وأن العين نافذة النفس التي تطل منها، والتي يمكن أن تقتحمها فتتصل بنفس صاحبها. فقال: هل العين هي النافذة الوحيدة التي ننفذ منها إلى النفس؟

أقول إننا نفترض وجود النفس افتراضًا؛ لأنها حتى لو كانت موجودة، ما استطعنا إدراكها هذا الإدراك المادي كما نرى الأشياء المحسوسة بالنظر. والأمر كذلك في الروح إن صح أنها موجودة. ولذلك كانت التفرقة بين النفس والروح أمرًا عسيرًا؛ لأن كليهما غير معروف على التحقيق.

وأقصى ما ذكره المفكرون والفلاسفة في هذا الموضوع أنهم وحدوا بين النفس وبين «الأنا»، أو هذا الشيء الذي يوحد شخصيتك ويجعلك أنت أنت في مختلف الأزمنة. فأنت أنت اليوم كما كنت بالأمس، على الرغم من اختلاف مظهرك. بل أنت أنت حين كنت صبيًّا، وحين أصبحت رجلًا، وبعد أن انتقلت من طور الرجولة إلى طور الشيخوخة.

وهذا ما عناه ديكارت الفيلسوف بقوله: «أنا أفكر إذن أنا موجود». فقد شك في وجود كل شيء حتى وجود جسمه، ولكنه لم يستطع أن يشك في وجود هذا الجزء المفكر الذي سماه «أنا».

وأظن أنك توافقني على أن الأنا حقيقة لا شك فيها، على خلاف النفس أو الروح. فلنصطلح على تسمية هذه الأنا بالنفس ونتواضع على وجودها، ثم تعال نبحث أنا وأنت في أنفسنا.

كيف أعرف نفسك وكيف أتصل بها اتصالًا مباشرًا، لا عن طريق المظاهر الخارجية التي تبدو منك في هذه الأعمال الكثيرة التي تصدر عنك، والتي نجمعها ونستدل منها على شخصيتك. ولكننا نريد أن نتخطى المظاهر إلى البواطن، كما فعلنا في النظر من خلال العين نقتحمها لنصل إلى النفس.

فهناك سبل أخرى للاتصال أو للتراسل، بين النفس والنفس، بين الشخص والشخص، بين أنا وأنت.

وأول وسائل الاتصال الكلام؛ لأن اللغة طريق للتفاهم بين الناس، وسبيل للتعبير عما يجول في أنفسهم. والكتابة هي كلام مسجل، فأنت حين تقرأ هذا الكلام الآن إنما تتصل بنفسي، أو أني اتصل بالقراء عن طريق الكتابة.

هذا هو الطريق الواضح المألوف المعروف. والإشارة باليد، أو التعبير بالعين من وسائل نقل الأفكار على سبيل التأويل. ولغة الأعين معروفة لدى العشاق، إلا أن هذه الأمور ملموسة محسوسة ظاهرة.

وهناك طريق خفي باطن يصل بين شخص وآخر، ويربط بينهما على بُعد المسافة واختلاف المكان. روى لي صديق أنه أحس ذات مساء باضطراب شديد، وخُيِّل إليه كأن أحد أقربائه في ضيق شديد، وأنه يناديه ويستنجد به، ولكن الشعور كان غامضًا فعزاه إلى الوهم. فلما أصبح الصباح عرف أن قريبه هذا أُصيب بمكروه في نفس الساعة التي أحس فيها ذلك الإحساس.

وكان أبي -رحمه الله- مريضًا في أواخر حياته مرضًا شديدًا، ولم أكن أسكن معه في بيت واحد، وكنت أزوره بين حين وآخر، وذات يوم ولم أكن عازمًا على زيارته، نزلت من بيتي في الصباح، ثم تأخر الترام الذي أريد أن أركبه، وخطر ببالي أن أذهب لزيارة والدي، ثم قلت في بالي: «ولكني لست معتادًا أن أذهب في الصباح، فلأرجئ الزيارة إلى بعد الظهر»، ولكن الخاطر ألح عليَّ، وإذا بي أجدني أتجه في طريق والدي، فذهبت إليه، وكان ذلك اليوم هو اليوم الذي تُوفِّي فيه، قال لي والدي: كيف جئت؟ لقد كنت أفكر في حضورك، لم أرغب في الاتصال بك عن طريق التليفون؛ إذ تكون قد خرجت من الدار. وصرفت الحديث إلى شيء آخر، ولكني عجبت في نفسي، بل تحققت أنه اتصل بي اتصالًا روحيًّا.

وقراءة الأفكار من هذا القبيل، وقد حار العلماء في تعليلها. ذهب بعضهم إلى وجود الأرواح التي تنقل الفكر، وذهب بعضهم الآخر إلى وجود سيال مغناطيسي يخرج من الشخص ويتصل بالشخص الآخر، وآخر ما قرأت في تعليل هذه الظاهرة، أن المخ البشري أشبه بجهاز

الراديو، وهو جهاز إرسال واستقبال، كما ترسل الإذاعات على أمواج الأثير، طويلة أو متوسطة أو قصيرة، كذلك ترسل الأفكار في الفضاء، أو هي تنبعث عن صاحبها وتنتشر في كل مكان وتذهب إلى أبعد المسافات، ثم يستقبلها المخ المهيأ لاستقبالها، وهذه نظرية طريفة لعل الوسائل العلمية تثبت صحتها، فهي لائقة وموافقة للعلم.

ومن الغرائب التي تحتاج إلى تعليل أنك تفكر في شخص من الأشخاص، فإذا به بعد قليل يحضر أو تقابله في الطريق، وفي ذلك يقول المثل العامي: «جبنا في سيرة القط جه ينط». ولعل ذلك من قبيل المصادفات، ولعل ذلك من باب الاتصال الروحي الذي نتحدث عنه، أو هذا الطريق الخفي غير الملموس.

ولا يتم هذا الاتصال عن بعد إلا إذا سبقت الصلة بين الشخصين، وكلما كانت أوثق،كان الاتصال أشد، مثل الصلة بين الأم وابنها، والأب وابنه، والأخ وأخيه، والصديق وصديقه.

وقد قرأنا في القصص، ورأينا في دور الخيالة، روايات تحدثنا عن أم تنزعج، بل تصحو من نومها،وكأنها ترى ابنها قد مات أو أُصيب في حادثة مفجعة، ويكون ذلك كله صحيحًا، مع أنها في بلد وابنها في بلد آخر.

وروى لي صديق هذه القصة الواقعية أسجلها لغرابتها، قال: ذهب طالب في بعثة إلى إنجلترا يطلب العلم، ثم تزوج من إنجليزية وعاد إلى مصر، وأنجب منها طفلًا؛ وبعد بضع سنين هجرته زوجته في

صحبة ابنهما، ولم يعرف لهما مكانًا، ومرت الأعوام ونشبت الحرب الأخيرة، ووضعت الحرب أوزارها، وفي يوم من الأيام أو على الأصح في ليلة من الليالي، كان يجلس مع بعض أصدقائه في إحدى الأماكن العامة يتنادمون على الشراب، ودخل المكان شاب إنجليزي اتخذ مكانه قريبًا منهم، وبعد قليل أقبل عليهم ثم حياهم وطلب منهم المشاركة في المنادمة، ثم سأل هذا الشخص الذي هجرته زوجته: أيعرف فلانًا؟ فأجابه: لماذا؟ قال: إنه يبحث عنه لأنه أبوه، ثم قص عليهم قصته، وأن أمه توفيت، وعثر في أوراقها على ما يثبت نسبه لأبيه، فعزم على الحضور إلي مصر للبحث عنه ، وأنه وصل منذ يومين. والغريب في هذه القصة الاتفاق العجيب الذي يدفع الابن إلى المشرب، ثم يدفعه إلى مشاركة القوم في شرابهم دون غيرهم، ثم يدفعه إلى سؤال أبيه دون سائر الندماء.

فكيف نعلل هذه الظواهر وأمثالها؟ أيكون مرجعها إلى المصادفة والاتفاق؟ إلا أن العلماء الذين يجرون التجارب على هذه الأمور التي يسميها البعض روحانية ويسميها البعض الآخر «ميتا بسيشيك» أو ما بعد النفس، كما أوضحت ذلك في كتابي «في عالم الفلسفة»، يقرون أن المصادفة بعيدة الوقوع. وذهبوا في التعليل مذاهب شتى، منها قولهم بوجود «حاسة سادسة» هي التي تدرك الأشياء عن بُعد كما يدرك البصر المحسوسات عن قرب بالعين، وتنقل الأفكار بين الناس، أو تنقل الشعور، وجملة القول يتم بها الاتصال الروحاني بين شخص وآخر.

الأحلام

الأحلام من أغرب الظواهر النفسية التي لفتت أنظار الإنسان من قديم الزمان وحار في تعليلها. وقد اشتهر يوسف -عليه السلام- بتعبير الرؤيا وعلمه الله تعالى تأويل الأحاديث، فلما سُجن، ودخل السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرًا، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه. وفسر يوسف هذه الرؤيا فقال: أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه. وصح تفسير يوسف فكأنه تنبأ بما يقع في المستقبل. وجرى العرب في تفسيرهم للأحلام على أن الرؤيا قسمان «صادقة وأضغاث أحلام»، فالرؤيا الصادقة كهذه التي رآها صاحب يوسف في السجن وفسرها له، أما أضغاث الأحلام فهي كما يحدِّث به المرء نفسه من هموم وآمال، مثل أن يرى الإنسان نفسه مع مَن يحب قلبه، أو يخاف من شيء فيراه، أو يكون جائعًا فيرى أنه يأكل. هذا هو رأي النابلسي في كتابه «تعطير الأنام في تفسير المنام». وقد عدل المحدثون من علماء النفس عن

القول بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل وتنذر عما يقع، وقالوا -وعلى رأسهم فرويد- إن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها تحقيقها في اليقظة. غير أن بعض العلماء في العهد الأخير أخذوا يجرون أبحاثًا قد تفضي بهم إلى أن هناك رؤيا صادقة كما كان يزعم القدماء.

وقد سلك فرويد في بحثه طريقة لطيفة؛ إذ نظر في أحلام الأطفال الصغار فرأى أنها استمرار لما يطلبون في اليقظة، هذا طفل يحلم أنه يأكل قطعة من الحلوى، وتعبير هذا الحلم أنه طلب الحلوى ولم ينلها، فحقق رغبته في النوم في صورة من الحلم، وهذا شبيه بما حدثنا به النابلسي من أن الجائع يرى نفسه يأكل.

وبهذه المناسبة أذكر واقعة حقيقية قصتها عليَّ إحدى السيدات، قالت إن لها طفلة صغيرة تبلغ من العمر ثلاث سنين، استيقظت وهي نائمة وكانت إلى جانب أمها، وأخذت تضربها وتضربها، ثم سكتت وعادت إلى النوم كأن لم يحدث شيئًا، وظنت الأم أن ابنتها قد أصابها مس من الشيطان أو اختلط عقلها وأصابها الجنون. قلت لهذه السيدة: هل ضربت ابنتك في النهار؟ قالت: نعم، قلت لها: إليك تفسير هذا الحلم: «لم تستطع ابنتك أن ترد العدوان بالعدوان، وأن تضربك كما ضربتها لأنك أقوى منها، فحققت رغبتها في المنام». ومن الناس من يتكلم وهو نائم بصوت عالٍ، ومنهم من ينهض من فراشه ويمشي ويأتي بأعمال غريبة، وهذا ما يُسمَّى بالجولان النومي، كهذه الطفلة التي حدثتك عنها، والعلة في ذلك هو الرغبة الباطنة في أداء عمل من الأعمال يعجز صاحبه عن أدائه في اليقظة فيعمله في النوم، وقد يأتي

هؤلاء القوم بأعمال في غاية الخطورة. يُحكى أن مريضًا بالجولان كان يستيقظ، نعني أنه ينهض من نومه ولا يزال نائمًا، ثم يخرج من غرفته من النافذة ويمشي على كورنيش الدار، ثم يعود إلى غرفته مرة ثانية، ولو أنه استيقظ لزلت قدمه ووقع من أعلى الدار. وروى بعض الطلبة أنهم ينهضون في الليل فينقلون كراسات بأكملها وهم نيام.

وليس هناك فرق بين أحلام المنام وأحلام اليقظة؛ فالأصل فيهما واحد هو الرغبة في تحقيق الآمال، كل ما في الأمر أن العقل في النوم لا يكون يقظًا فتختلط الصور ويتركب بعضها فوق بعض، وفي أحلام اليقظة يعمل العقل واعيًا عن شعور، هذا تاجر قد اشترى بضاعة يأمل في تصريفها والربح منها، فيخلو إلى نفسه ويتخيل ذلك؛ أو كذلك الرجل الفقير الذي تحدثنا عنه القصة من أنه اقتصد سمنًا وضعه في جرة وعلقه على الحائط فوق السرير، ثم اضطجع وأخذ يحدث نفسه قائلًا: سوف أذهب يوم السوق أبيع هذا السمن ثم أشترى قطعة من الأرض أزرعها وأقيم عليها دارًا، وأتخذ لي زوجة تلد لي غلامًا أُحسن تهذيبه وتربيته، وإذا لم يصدع لأمري ضربته بهذه العصا، وطوحها بيده فهوت على الجرة فكسرتها وسال السمن على وجهه، هذا مثال لأحلام اليقظة. وأظن أنَّ كل إنسان يفَرِّج عن نفسه في هذه الصورة بمقدار ولو صغير، فهي ولا ريب منفذ يتنفس منه المرء في هذا العالم الذي لا تنقطع فيه المطالب من مال وسلطان.

ويخطئ فرويد في زعمه أن العقل البشري عند النوم والأحلام يكون مختلفًا عنه في حالة اليقظة. الواقع أن الانسان وهو نائم يحس

بالعالم الخارجي ويدرك إلى حد ما، فنحن ننام على أسرَّة نتقلب عليها ومع ذلك لا نقع على الأرض، مما يدل على شيء من الانتباه، وتنام الأم وسط ضوضاء شديدة، ولكنها تستيقظ إذا سمعت بكاء طفلها. وتريد أن تستيقظ في ساعة معينة من الصباح على غير العادة فتستيقظ فعلًا. وهذا دليل على أنك تستطيع أن توحي إلى نفسك في حالة النوم بأشياء تعملها كأنك في يقظة. وبناء على ذلك نحن نستمر في التفكير في المشكلات التي تواجهنا في أثناء النهار، ولا نستطيع لها حلًّا، في أثناء الليل في الأحلام أو في أحلام اليقظة، والفارق الوحيد هو أننا نعجز عن مواجهة الواقع فنهرب منه إلى الأمل والخيال والأحلام.. وأحلام التلاميذ قبل الامتحانات هي من هذا القبيل، فالامتحان المدرسي مشكلة يريد الطالب أن يتخطاها، والحل لهذه المشكلة هو الاستذكار والحفظ وسهر الليالي، ولكنه يخاف مع هذا العمل من الرسوب، أو يزهد في الدرس، ومع ذلك يرغب في النجاح، عندئذ يحلم باجتياز الامتحان بنجاح، غير أنه لا يرى الحقيقة في الحلم كما يراها في اليقظة، أي يطلع على النتيجة معلقة في المدرسة أو يقرأها في خطاب رسمي وما أشبه ذلك من وسائل الإعلان، بل يراها في صورة رمزية كأنه واقف على قمة جبل، وهذا دليل على العجز وعلى الخوف من الفشل.

وكان القدماء من المفسرين يعبرون الرؤيا على ما سوف يقع في المستقبل. يُحكى أن رجلًا أتى ابن سيرين، فقال: «رأيت كأن خاتمي انكسر»، فقال: إن صدقت رؤياك طلقت امرأتك، فلم يلبث إلا ثلاثة

أيام حتى طلقها. وجاء ابن سيرين رجل فقال: «رأيت في يدي خاتمًا أختم به أفواه الرجال»، فقال: «أنت رجل مؤذن تؤذن في غير وقت في شهر رمضان فتحرم على الناس الطعام»، وشبيه بذلك ما يذهب إليه فرويد -زعيم المحدثين- في تعبير الرؤيا، فهو يذهب إلى أن الصور التي نراها في المنام رموز يلجأ إليها العقل الباطن من دون شعور، بل قد يقع لنا مثل ذلك في اليقظة. روى فرويد أن سيدة نسيت خاتم الخطوبة وظلت تبحث عنه دون جدوى، وبعد أيام وجدته فوق حوض الحمام، فلما قصت ما وقع لها على فرويد، قال: «الخاتم رمز الزواج ونسيان الخاتم دليل على الرغبة الخفية في كراهية هذا الزوج»، فكان كما قال.

وتختلف الرموز باختلاف الأشخاص والبقاع والأزمنة، ولذلك ليس من الصواب أن يلجأ المفسر إلى قاموس الأحلام؛ لأن ما يصلح لشخص لا يصلح لشخص آخر.

والمذهب الذي نختاره في التأويل أن ننظر في الحلم جملةً لا تفصيلًا، ثم نأخذ ما يدل عليه جو هذا الحلم، أي الأثر النفساني الذي يحدثه، وكثيرًا ما أصاب القدماء في تأويلهم لهذا السبب. أتت امرأة ابن سيرين فقالت: كأني قتلت زوجي مع قوم، قال لها: إنك حملتِ زوجك على إثم فاتقي الله. والمعنى أو الرمز هو أن هذه المرأة أذنبت في حق زوجها، وشعرت بجرمها، فتصورت بعد التجسيم أنها قتلته، وهذا ضرْب من الاستعارة. حكى أدلر -تلميذ فرويد- أنه كان يعالج المرضى العصبيين في أثناء الحرب الكبرى، فجاءه ضابط يطلب

إجازة حتى يبتعد عن جبهة القتال، وكشف عليه أدلر فرآه سليمًا، فلم يوافق على الإجازة، فلما أمسى الليل رأى في المنام كأنه قتل إنسانًا كان يجري في الظلام، وظل يبحث في الأزقة ليتبين من الذي قتله فلم يهتدِ، فلما أصبح الصباح عجب لهذا الحلم وظل يبحث.. تُرى من يكون هذا الذي قتله؟ فعرف أنه ذلك المريض الذي رفض أن يمنحه الإجازة، وأن عقله الباطن يؤنبه على ذلك.

ومن طرائف الأحلام، ما يراه النائم أنه يطير في السماء. يذهب فرويد إلى أن هذا الحلم عود إلى عهد الطفولة، حين كان الطفل يهَدْهَد ويرفعه أهله بين أيديهم فيحس بلذة وراحة. ويختلف أدلر معه فيرى أن هذا الرمز دليل على الرغبة في الصعود من أسفل إلى أعلى، أو الرغبة في التغلب على العقبات وبلوغ الأماني من أيسر طريق.

لا شك في أن الأثر النفساني الذي يحدثه الحلم عظيم، فالكابوس -وهو الحلم المرعب- يجعل صاحبه يستيقظ وهو في همٍّ شديد، ورؤية البساتين والحدائق والمناظر الجميلة تعود على صاحب الحلم بالبهجة بعد اليقظة.

فلتكن أحلامنا سعيدة حقق الله لنا الأحلام.

* * *

الرؤيا الصادقة

أرسل إلينا الدكتور محمود عبد الله -عقب المقال الذي نشرناه عن النفس والروح- كتابًا يطلب فيه تفسيرًا علميًّا لحلم جاء فيه أنه في ليلة من ليالي أغسطس ١٩١٤ رأى -فيما يرى النائم- أنه وصله تلغراف من الدكتور فيشر، وهو طبيب إخصائي في الرمد، نصها «احضر لمقابلتنا باكر الساعة ١١ صباحًا»، فلما استيقظ من النوم لم يدهش لهذا الحلم ولم ينزعج للرؤيا أو يفكر فيها؛ لأنه لم يفكر في الاشتغال بطب الأعين. وبعد أن تناول الإفطار، وذهب إلى عيادته، إذا به يتلقى في الساعة العاشرة تلغرافًا نصه كنص التلغراف الذي رآه في المنام، ما عدا الإمضاء؛ إذ كانت الدكتور ماكلان.

ولا نزاع في أن مطابقة الواقع الذي حدث في المستقبل لما رآه صاحب الرؤيا في الليل أمر غريب يحتاج إلى تعليل.

والتفسير العلمي هو أحد أمرين إما انتقال الفكر، المعروف باسم التلباثي، وإما انشغال البال دون شعور. فمن جهة الفرض الأول، أي

انتقال الفكر، يكون الدكتور ماكلان، وهو رئيس قسم الرمد في ذلك الوقت، قد فكر في إرسال التلغراف إلى الدكتور محمود عبد الله، وحدد الصيغة والساعة، وتلقى ذهنه هذا كله فرآه حلمًا، أو يكون الذي فكر في ذلك أحد الموظفين أو الكتبة.

وانتقال الفكر حقيقة مسلم بها علميًّا، ولو أن تعليلها مُخْتَلف عليه، وقد تحدث في حال اليقظة، كما تحدث في النوم.

والفرض الثاني أن الرؤيا نتيجة التفكير اللا شعوري في الاشتغال بهذا الفرع من فروع الطب. ونحن نرجح هذا الفرض، وخصوصًا لأن صاحب الرؤيا يقول إنه اعتذر عن قبول هذا العمل بقصر نظره، ولم يخطر بباله، ولم يفكر في يوم من الأيام في الالتحاق بقسم الرمد. نقول إن العقل الباطن يفكر على خلاف العقل الظاهر، وإن قصر نظره هو السبب في انشغال البال بقسم الرمد، والتفكير في العمل بهذا الفرع تفكيرًا لا شعوريًّا. ويبقى أمر التلغراف والساعة وقد يكون ذلك من قبيل المصادفة، أو لعل هذه هي الطريقة التي كانت متبعة في استدعاء الأطباء للعمل في ذلك الحين، فلم يكن مستغربًا أن يحلم بنفس الطريقة.

وقد حفظ التاريخ عدة أمثلة للرؤيا الصادقة، وقالوا إن ذلك دليل على التنبؤ بالغيب والاطلاع على المستقبل، وكتب قدماء المصريين والإغريق والرومان في ذلك الشيء الكثير.

ومما حفظه التاريخ ما يُروى عن كالبورنيا زوجة قيصر الرابعة، فقد حلمت ليلة مصرعه أن سقف البيت قد تهدم على سكانه، وأنها

تلقت زوجها -وقد طعنه الأعداء- بين يديها فمات في أحضانها، وأنها رأت تمثال قيصر كأنه نافورة بها مائة صنبور تتدفق منها الدماء، فجرى إليها كثير من أهل روما يغسلون فيها أيديهم.. وقد صور شكسبير هذه القصة شِعرًا في روايته يوليوس قيصر. ويُرْوى أنها حاولت أن تمنع زوجها من الذهاب إلى مجلس الشيوخ في صباح ذلك اليوم المشؤوم، ولكنه أصر فلقي القدر المحتوم.

وشبيه بهذه القصة ما رُوِيَ عن حياة الرئيس لنكولن رئيس جمهورية الولايات المتحدة، فقد حكى «لان» -كاتب سيرة حياته- أن الرئيس رأى في المنام قبل مصرعه بأسابيع الرؤيا الآتية:

كنت أشعر بسكون رهيب يشبه سكون الموت.. ثم سمعت شهيقًا وكأنَّ عددًا من الناس يبكون. وخُيِّل إليَّ أني نهضت من فراشي ونزلت سلم الدار.. وكان يقطع ذلك السكون صوت البكاء والعويل غير أني لم أرَ أحدًا. وذهبت من حجرة إلى حجرة، فلم أقابل إنسانًا، ولكني كنت أسمع هذه الأصوات الحزينة فاضطربت وفزعت.. ما معنى هذا كله؟ وأخيرًا بلغت الغرفة الشرقية، ودخلتها حيث رأيت مفاجأة رهيبة؛ كان أمامي صندوق موتى وفوقه جثة قد لُفَّت بالأردية الجنائزية، واصطف حولها جند في وقفة الحرس، وازدحم الناس بعضهم يحدِّق في حزن في الجثة التي كان وجهها مستورًا، وبعضهم الآخر يبكون بكاء حارًّا. فقلت: «من الذي مات في البيت الأبيض؟.. إنه الرئيس، لقد طعنه قاتل أثيم...»، واستيقظ الرئيس لنكولن مذعورًا، ولم ينم بقية ليلته، وظل مضطربًا من أجل هذه الرؤيا إلى أن قُتِلَ فعلًا.

وروى هيرودوت في تاريخه عن كروسس -آخر ملوك ليديا في القرن السادس قبل الميلاد- أنه أراد أن يعرف رأي الآلهة في الحرب التي ينوي إعلانها على سيروس، ولكنه قبل أن يسمع رأي العرافين في زمانه، أراد اختبارهم، فأرسل إلى ستة عرافين، وعيَّن لهم يومًا معينًا وساعة معينة، طالبًا منهم التنبؤ بما يفعل في تلك الساعة. ثم نوى أن يعمل شيئًا غريبًا غير مألوف لا يخطر بالبال. وأخفق العرافون ما عدا عراف دلفي، الذي قال إن الملك قد أخذ سلحفاة وخروفًا وقطعهما قطعًا صغيرة ووضعهما في إناء من النحاس وأشعل تحته النار. وكان ذلك صحيحًا.

فإن صحت هذه الرؤيا التاريخية، فإنها دليل على انتقال الفكر؛ لأن العراف انتظر حتى جاءت تلك الساعة.

أما حلم زوجة قيصر فلعله من قبيل انشغال البال، والخوف على زوجها، ثم حققت الحوادث وهمها. وكذلك حلم الرئيس لنكولن، فالعظماء مهددون، وهم لهذا السبب يتخذون الحرس الشداد.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى فرض آخر، فزعموا أن الإنسان يستطيع الاطلاع على المستقبل، وأن يستشف حجب الغيب، وأن يرى الأشياء عن بعد، وذلك بحاسة سموها «الحاسة السادسة» بها يدرك الغيب، ويعرف الأشياء البعيدة كأنه يراها بالبصر، غير أن العلم لم يعترف بوجود مثل هذه الحاسة؛ لأنه لا يعترف إلا بالأشياء الواقعة التي يمكن مشاهدتها، والتي يمكن إحداثها، والتي يمكن قياسها،

وهذه الحاسة لا تخضع لضابط، بل ذهب القائلون بها إلى أن الوسطاء الذين يوهبون هذه الموهبة، لا يمكن تعليمهم أو تنمية الموهبة في أنفسهم، وأنها تظهر فترة من الزمن ثم تختفي.

ولذلك كان مذهب فريد في تفسير الأحلام، وخلاصته أن الحلم تحقيق رغبة كامنة، أو خوف باطن لا شعوري، هو أدنى إلى العلم.

فالحلم أمل يتحقق أو خوف يتجسم.

وقد يتحقق الأمل أو يتجسم الخوف صريحًا لا رمزًا، كما هي أغلب الحالات، وعندئذ نقول إن الرؤيا صادقة تعبر عن المستقبل.

* * *

جواهر

- الكلمـــــــــة
- القـــــــــراءة
- الأدب المكشوف
- الذوق والمجتمع

الكلمة

هل لاحظت رضيعًا أخذ في النطق والكلام؟ ألم ترَ أن أول لفظة ينطق بها هي بابا أو ماما؛ لأنهما أسهل الأصوات مخرجًا، وهما شائعتان في أغلب اللغات لهذه العلة. وحاجة الطفل إلى أمه وأبيه شديدة؛ لأنه ضعيف لا يعتمد على نفسه، ويحتاج إلى الأمن من الخوف والجوع والبرد، فإذا نطق بهذا اللفظ وارتبط بسمعه، طُرب له وعجب لصدوره منه ورأى أنه كأهله يسمع وينطق، ويزداد عجبه عندما يشهد أثر الكلمة ووقعها في أمه عندما يناديها قائلًا: «ماما»، فإذا بها تجيب برد الكلمة بكلمة واللفظة بلفظة أخرى، بل تتجه نحوه وتتحرك إليه، وتقبل عليه، وتتلمس حاجته وتقضيها له، بأن تسقيه أو تناوله لعبته، أو تساعده على النهوض، وما أشبه ذلك من حاجات الأطفال.

وهنا وجه العجب، كيف يحرك صوت مؤلَّف من حرفين إنسانًا طويلًا عريضًا فينقله من مكان إلى مكان؟

هذه هي قصة الكلمة في نشأتها عند المرء منذ يشب عن الرضاعة ويخرج عن الطوق. إنها إشارة إلى الأشياء المحيطة بالإنسان، هذا

أب وهذه أم، وهذا باب أو شباك أو كرسي أو مائدة أو عصفور، وما أشبه ذلك مما يراه الصغير ويقع تحت الحواس، فالكلمة رمز يعبر عن الشيء، وقد اجتمع اصطلاح القوم عليه، وتعارفوا فيما بينهم على أن اللبن المؤلف من اللام والباء والنون هو هذا السائل الأبيض المعروف.

فالأصل في الكلمة صدروها من فرد إلى فرد، وخطاب من شخص إلى شخص، ولذلك كانت الكلمة ظاهرة اجتماعية لا تُفهم إلا من هذا الاعتبار، ولو أنها تعبر عما يجول في الذهن ويدور داخل النفس.

ولولا حياة الإنسان في جماعة وحاجته إلى غيره من الناس وصلة كل واحد بالآخر، ما رأى وجهًا لضرورة الكلام. وهل يكلم نفسه إلا مجنون أو مخبول؟

وأول سحر للكلمة هو ما رأيناه من أنها تؤثر في الناس فتدفعهم إلى الحركة والعمل والسلوك. فلما يتبين الطفل أن نداءه لأبيه ينقله إليه، يتطلع إلى تكرار هذا النداء ليتحقق من أثر الكلمة وصدق فعلها، فينادي أباه مرة ثانية وثالثة ورابعة. ويسر لذلك أشد السرور؛ لما يراه من النتيجة الباهرة التي يصل إليها، ولكن الأب يسأم هذا الطلب الذي يخلو من الجد، ويأنف أن يصبح ألعوبة في يد ابنه، فلا يجيب له بعد ذلك طلبًا.

تُرى هل فقدت الكلمة سحرها وانعدم مفعولها؟

وهناك كلمات تُغني عن آلاف، وتحرك الجماعات، فهذه فرنسا -قبل ثورتها- شاعت فيها الأفكار الجديدة، وألَّف الفلاسفة الكتب

والرسائل والمطولات يحللون الطبيعة البشرية، ويصورون نظمها ويتصورون السبيل إلى صلاح أمرها، حتى إذا شبَّت الثورة الفرنسية لخصت الكتب المطولات في ثلاث كلمات: الحرية والإخاء والمساواة.

تُرى ما الحرية؟ هذه كلمة واحدة من بين عشرات مثلها، كالديموقراطية والعدل والخير والشر مما يجري على كل لسان، ومع ذلك يُحار المرء في معرفة المراد، وتحديد المدلول، وبيان الواقع وإصابة الحق.

المهم أن هذه الكلمات مع غموضها ذات تأثير عظيم.

والكلمة حين تخرج من فم صاحبها، تعبِّر عن شعوره وتفصح عن إرادته، وكأنها عهد قطعه على نفسه، وهذا هو معنى قولهم: «أعطيك كلمتي»، كأنها تقع في مقابل الإرادة مع الشرف في التنفيذ.

ولكن الكلمة طائرة تذهب في الهواء وتصبح هباء، ويستطيع صاحبها أن ينكرها والتحلل منها، ولذلك استعانوا بالشهود يؤكدون السماع، واستوثقوا بطلب الحلف بالله العظيم؛ حين رأوا أن الشهود يُشترون بالمال، وعبث الناس بأيمانهم، كما جاء في أمثال العامة: «قالوا للحرامي احلف، قال جالك الفرج»، عندئذ قيدوا الكلمة بالكتابة، وسُمِّي ذلك عقدًا بين الطرفين، ثم زادوا العقد وثاقة بإمضاء الشهود حتى لا يحتمل الإنكار. فهل حفظ الناس كلمتهم بعد هذه الضمانات كلها؟

من أمثال اللاتين في العصر الوسيط أن الثور يُربط بقرنيه والإنسان بلسانه؛ لأن المعول كان على الشرف في حفظ الكلمة. ويبدو أن الإنسانية تسير إلى طريق منحدر يبعد كل البعد عن الفضيلة والشرف وهذه الخلال الكريمة التي ترفع من شأن الإنسان. وليست الأخلاق شيئًا آخر إلا التمسك بالكلمة، وحفظ العهد، وتنفيذ العقد، وقد شاع في الناس -مع الأسف الشديد- سوء الخلق؛ بأن أخذوا يتحللون من الكلمة وينقضون الميثاق، وهذه صفة تنتشر في الدولة مع عصور الانحطاط، بل هي آية التأخُّر ونذير الانحلال. وما رأينا أمة نهضت وتبوأت مكانها في التاريخ إلا وكانت الأخلاق الفاضلة الدعامة التي قامت عليها، وأول هذه الدعامات صدق الوعد، وحفظ العهد، والتمسك بالعقد.

والغريب في أمة الإنجليز أنهم ينكثون بكلمتهم في السياسة، ولكنهم يتمسكون بها فيما بينهم. وهذا سر نجاح الشعب وبقائه.

فإذا تأملت في الصلة بين الكلمة والواقع رأيت عجبًا.

رأيت الكلمة ثابتة، والواقع متغيرًا. هذا تاجر قد اشترى بضاعته بألفٍ من الجنيهات، وأعطى كلمته، والكلمة بين طوائف التجار شرف يرتبطون به. فلما تجهزت البضاعة وأوشك على الاستلام، نزلت الأسعار نزولًا كبيرًا فأصبحت لا تساوي أكثر من خمسمائة جنيه، فهل يتمسك التاجر بكلمته ويدفع الثمن الذي قال عنه، أم يتحلل من كلمته فلا يدفع إلا ثمن البضاعة الحاضرة؟ وبيان هذا الاختلاف هو الفرق

بين الكلمة والواقع، بين الكلمة الثابتة وبين الواقع المتغير. وأنت حين تطلب من الناس أن يتمسكوا بكلمتهم مع تغير الواقع -لأن الحياة دائمة التغير لا تثبت على حال- إنما تطلب منهم الوقوف عن مسايرة الحياة والوقوف جمود، والجمود تخلُّف عن الركب وتأخُّر عن التقدم، بل انظر إلى حالة هذا التاجر، ألست ترى أن تمسكه بكلمته هو الإفلاس؟

هذه هي المشكلة، فكيف السبيل إلى حلها؟

قل كلمتك مع الاحتياط لجميع الظروف، فلا تسرف في الوعد، ولا تقطع على نفسك عهدًا لا تستطيع تنفيذه، فإذا نطقت بالكلمة فعليك أن تحفظها، ولذلك كان الصمت أفضل من الثرثرة، وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، كما قيل في الأمثال.

* * *

القراءة

ذكر المؤرخون عن أبي الوليد ابن رشد فيلسوف قرطبة أنه عُنِيَ بالعلم من صغره إلى كبره، حتى حُكِيَ عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله، وأنه سوَّد فيما صنَّف وقيَّد وألَّف وهذَّب واختصر نحوًا من عشرة آلاف ورقة.

وحكى الشيخ الرئيس ابن سينا يروي سيرة حياته، قال: «وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب». فلما بلغ سن الشباب، قال: «وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة، فإن غلبني النوم، أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح الشراب ريثما تعود قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، ومتى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام».

هذه أمثلة نسوقها إلى شباب اليوم وعماد المستقبل؛ ليعلموا أن السر في نهضة الشرق وحضارته التي ازدهرت في ذلك العهد، إنما قامت على العلم ومحبته، فلا حضارة بغير ثقافة، ولا ثقافة من دون تعلُّم، وطريق العلم شاقة، وسبيلها الاطلاع والتوافر على القراءة.

وكان القدماء يسعون إلى الكتاب، على ما في ذلك من مشقة النسخ وقلة الضوء وغلاء المؤلفات وضنّ أصحابها بها، حتى إذا سعى الكتاب إلى الناس مطبوعًا أنيقًا رخيصًا واضحًا في ضوء الكهرباء انصرفوا عن قراءته، وزهدوا في الاطلاع عليه.

وهذه آفة خطيرة بالغة الأثر في حضارة هذه الأمة. وما بالك والشعب المصري يزيد عدد سكانه على عشرين مليونًا ولا تتعدى أعظم الصحف انتشارًا مائة ألف، ولا يُطبع كتاب أكثر من ألفين نسخة لا تنفد إلا بعد بضع سنين. وفي أوروبا يُطبع من الصحيفة الملايين، ومن الكتاب الواحد الآلاف عدة طبعات في العام الواحد. فكيف نزعم بعد ذلك أننا أخذنا من الحضارة بالنصيب الوافر، ومنطق الأرقام يدل على الجهل الشديد.

ولكل آفة علة، ولكل علة دواء.

غير أن علة انصراف الجيل الحديث عن القراءة ليست واحدة، فهذه مشكلة ثقافية واجتماعية ونفسانية، بل واقتصادية أيضًا.

وليس الشباب هم المسؤولين عن ذلك؛ لأنهم لم يُنَشَّأوا النشأة الصحيحة، ولم يُوجَّهوا التوجيه السليم، والمسؤول هم أهله أولًا،

والمدرسة التي قامت بتعليمه ثانيًا.

ومن أغرب الأمور في مصر أننا نكل إلى المدرسة كل شيء، نطالبها بالتعليم والتهذيب والتربية الخلقية نفسها، مع أن الأصل في ذلك البيت، والمدرسة تختص بشيء آخر هو فتح باب العلوم أمام الطالب. وأنا أذكر تجربتي الشخصية التي أكسبتني عادة القراءة؛ لأن القراءة عادة إذا ألفها المرء تمكنت منه، وهي مثل كل عادة ينبغي بثها منذ الصغر وموالاتها بالتكرار. ففي سن العاشرة -أو نحو ذلك- كنت أميل إلى قراءة القصص، وكانت هذه الرغبة تدفعني إلى شراء الروايات وقراءتها في الفصل المدرسي، حيث أضع الرواية على ركبتي في أثناء الدرس؛ حتى لا يضبطني المدرس متلبِّسًا بقراءة رواية ومشتغلًا بالانصراف عن الدرس. فلما فترت الرغبة في قراءة القصص والروايات، اتجهت نحو قراءة أشياء أخرى أكثر جِدًّا، ووقعت على هذه الكتب مما كان موجودًا في البيت، وكان أبي -مع أنه مهندس- يقتني كثيرًا من الكتب الدينية، وبعض كتب الأدب مثل الأغاني.

وقرأتُ وأنا في الثانية عشرة الأدب الكبير لابن المقفع، فكان له أعظم الأثر في حياتي الأدبية، وفي تكوين ذوقي، وقرأت كذلك مما وجدته أمامي نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب.

نخلص من ذلك إلى أن الطفل يميل بطبعه إلى الاطلاع. فعلينا أن نفتح أمامه أبواب المعرفة، بأن نجهز له ما أُسمِّيه «مكتبة البيت» نضع فيها قصصًا تلائم ميوله ورغباته وتناسب عمره، وقد أصبحت

هذه الكتب متوفرة في السوق الآن، ثم نختار من الكتب ما يبحث في التاريخ والرحلات والدين والأدب مما يُكمل المكتبة، ويقرؤها رب الدار وزوجته، ويقرؤها أبناؤهما كلما دخلوا في طور الشباب.

والعلم سر رقي الأمم. أما رجال الجيل الحاضر، فإن كانوا من أهل الطبقة الراقية، اهتموا بالسباق واقتناء السيارات وهذه المظاهر البراقة التي تدل على الفراغ والاشتعال باللهو والابتعاد عن مواطن الجد. وهؤلاء هم الصفوة الممتازة القادرون -بما وهبهم الله من ثروة- أن يقتنوا المكتبات، كما كانوا يفعلون في العهود الغابرة الزاهرة، أو يقوموا بطبع الكتب على نفقتهم؛ تشجيعًا للثقافة ونشرًا للعلم وتيسيرًا له للفقراء من أهل أمتهم.

وإنْ كان المصري من أهل الطبقة الوسطى أو من الشعب، أنفق معظم وقته في «القهوة» يلعب الورق والنرد، أو يجلس كما يجلس «تنابلة السلطان» على قارعة الطريق ينظر إلى الغاديات والرائحات، فلا يجد بعد ذلك وقتًا ينفعه في القراءة والتثقيف.

فإذا رحلنا إلى المعلمين في المدارس نلتمس عندهم إنقاذ بعض الشيء من هذه الآفة، بأن يبثوا في نفوس النشء حب الاطلاع ولذة القراءة، فينشأوا على هذه العادة ويألفوها مع الزمن، رأينا جمهرة المعلمين -كسائر المصريين- لا يكاد أحدهم يفرغ من مدرسته، حتى يخرج محطم الأعصاب ثائر النفس، يقطع الوقت كما يقطعه أغلب الناس في المقهى، ولا تزيد قراءة أحدهم على النظر في الصحف

والمجلات. فكيف تطمع من أمثال هؤلاء المعلمين أن يعلموا الطلاب شيئًا لم يألفوه هم، وقد قيل فاقد الشيء لا يعطيه. والمعلم معذور؛ لأنه مطالب بنتيجة الطلبة في آخر العام حين يتقدمون إلى الامتحان، فهو يعدّهم لاجتياز الامتحان من أيسر سبيل، فيلخص لهم المقررات، ويمليها عليهم في مذكرات مختصرات، ويحفظها الطلبة ثم ينسونها بعد الامتحان، وقد انتشرت هذه الطريقة -مع الأسف الشديد- في الجامعة، مع أن الأصل في التعليم الجامعي اعتماد الطالب على المراجع المختلفة.

وبعد، فإن القراءة عادة حسنة تغني عن كثير من العادات السيئة، وهي غذاء العقل، ترفع المرء من عالم المادة إلى عالم المعاني والأفكار، وتجلب له متعة أمتع من المباهج المادية. ولن تندم إذا اشتريت كل شهر كتابًا واحدًا؛ لأنك سوف تجد في آخر العام اثني عشر كتابًا، وبعد عشرة أعوام مائة وعشرين، فتجد في آخر العمر مكتبة تأنس إليها، وتركن لها، وتجد في صحبة ما فيها من كتب ذكريات الماضي وتجربة الزمان.

* * *

الأدب المكشوف

احتدم الجدال في مصر أخيرًا حول الأدب المكشوف وما يتصل به كالصور العارية وما إلى ذلك، أيليق أن يُنشر على الجمهور أم لا يليق؟ أيتفق مع مبادئ الفضيلة أم لا يتفق؟ أيحق للدولة أن تتدخل في الحد من هذا اللون في الأدب أم لا يحق لها ذلك؟ لأن تدخلها يحد من حرية الرأي والفكر واللهو، وليست أنواع الصراع والحروب بين الدول والشعوب، إلا مطالبة بالحرية ودفاعًا عنها، وذودًا عن حياضها.

وللدين كلمة في هذا الموضوع أتركها لرجال الدين؛ فهم أولى الناس بعرضها، وهم لا ينفكون يذكرون الناس في المساجد والمعابد بما أمر به الله ونهى عنه.

ولكني أحب أن أذكر هنا كلمة علم النفس، أو بعض آراء زعمائه.

فالأصل في الإنسان العري وعدم الحياء من الأمور الجنسية، وهي المقصودة بما نسميه الأدب المكشوف؛ إذ هكذا يُولد من بطن أمه، ولو شاء الله لخلقه كاسيًا يستر عورته، كما هي الحال في سائر أصناف الحيوان، لا تُستَتر أعضاؤها التناسلية ولا تتخفى في اتصالاتها.

ولكن الإنسان إنسان وليس حيوانًا.

وإذا سلمنا بمذهب التطور أو النشوء والارتقاء الذي يحدثنا أن الإنسان كان حيوانًا ثم ارتقى درجة عن طور الحيوانية، تعددت آراء العلماء في الأصل الأول الذي انبثقت بعده حالة الإنسانية.

يذهب علماء الاجتماع إلى كثير من الفروض بعد النظر في المظاهر الخارجية لما يفعله الإنسان البدائي، أي في ابتداء إنسانيته. وهي مظاهر كثيرة منوعة منها استعمال النار، واستخدم الآلات، والاستفادة من اليدين، والتزين؛ نعني اتخاذ أشياء طبيعية أو صناعية كالزهور أو القلائد للزينة، ولبس الملابس إما للدفء وإما لستر العورة.

أي هذه المظاهر تعد الخطوة الأولى في الإنسانية؟

إني أزعم أو أفترض أن بداية الخروج عن الحيوانية والانتقال إلى ما يُسمَّى بالإنسانية هو ستر العورة، ولم يكن ذلك بكساء منسوج، ولكنه بأوراق الشجر وما يشبه ذلك من النبات، وليس من الغريب أن تحدثنا الأساطير الدينية بأن آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة إلى الأرض، ظهرت سوأتهما فاحتاجا إلى سترها بأوراق الشجر. ولقد شاهد الذين سافروا إلى باريس وحضروا ملهى «الفولي برجير» وغيره كيف تظهر النساء عاريات تمام العري، ولكنهن يسترن العورة بورقة شجر خضراء. وهذا رمز لحواء التي طُردت من الجنة، وكانت تعيش على وجه الأرض في هذا الزي.

فما معنى ظهرت سوأتهما؟

ليس معنى ذلك أن آدم كان خلوًا من الأعضاء التناسلية، وكذلك حواء، فهما يمثلان الذكر والأنثى، يمثلان الجنسين المختلفين اللذين يتم باتصالهما إنجاب خلف صالح هم بنو آدم، هم أنت وأنا وسائر الناس ممن يعمرون الأرض.

فقولنا ظهور العورة لا يدل على أنها لم تكن موجودة ثم وُجدت، بل على أنها كانت موجودة ثم تنبه لها آدم، وشعر بها الإنسان، ثم رأى أن يسترها.

والشعور هو أول مراتب الفكر، فلا عقل من دون شعور. وليس الحيوان عاقلًا لأنه لا يشعر، نعني لا يتأمل ما يصدر منه، وأغلب أعمال الإنسان لا شعورية تصدر عنه بغير وعي، فيكون كالآلة المتحركة لا كالإنسان العاقل المفكر.

وقد علل بعض العلماء ظهور الشعور في الإنسان من النظر في مياه النهر أو البحيرة، فإنها إذا كانت رائقة صافية كانت كالمرآة التي تنعكس على صفحتها صورته. لقد رأى الإنسان نفسه وأدرك أنه هو وليس شيئًا آخر وكائنًا مختلفًا عنه، فتأمل نفسه وشعر بوجود ذاته.

فلما راقب الإنسان نفسه في طعامه وشرابه وصيده وحركته ولهوه ولعبه وطلبه الأنثى، رأى أن أخطر هذه الأعمال وأعظمها أثرًا في بقائه هي حيازة الأنثى، والغيرة عليها والدفاع عنها من تطلُّع الراغبين فيها حتى يستأثر بها. وشاءت المرأة من جهة أخرى أن تثير رغبة الرجل بما تبديه من حياء ودلال، فأخفت عورتها ليزيد طلب الرجل لها.

ستر العورة هو فترة الانتقال بين الحيوانية المبتذلة والإنسانية المهذبة.

وستر العورة دليل على نشأة الشعور الإنساني.

وستر العورة بعد الشعور، هو أول مرحلة من مراحل التفكير البشري.

ثم رتَّب فرويد -عالم التحليل النفساني- مذهبه في الشعور واللا شعور. فهناك أعمال تشعر بها وتبرز في مجال الوعي وتتضح كأنها في ضوء ساطع كما تقرأ هذا الكلام الآن، وهناك أشياء «كبتها» -كما يقولون في الاصطلاح النفساني- فانتقلت إلى ميدان اللا شعور، وأهمها المسائل الجنسية التي تعلمت الإنسانية خلال آلاف من السنين أن تخفيها، ولا تتحدث عنها بصراحة، ولا تفعلها في وضح النهار كما نأكل ونشرب.

وقد استفادت الإنسانية من كبت الأمور الجنسية، فتحولت إلى الفنون والآداب والعلوم والمكتشفات، على سبيل التعويض عن ذلك الحرمان.

فالذين يطالبون بالحرية التامة في العلاقات الجنسية، يخرجون الإنسان عن طبيعته الإنسانية ويردونه إلى مرتبة الحيوان، والذين ينادون بمذهب الأدب المكشوف، إنما يطلبون قلة الأدب، بل يطلبون انعدام الأدب. ولست أدري ماذا أقول في هذا التناقض الشنيع؛ إذ لا يتفق أدب وانكشاف؛ لأن الأدب في طبيعته سمو، سواء أكان التسامي خاصًّا بالأمور الجنسية أم كان التعالي عن غيرها من مظاهر الحياة. ولا يكون الأدب أدبًا إلا إذا كان جميلًا، ومن جمال الصورة أن تستر الشيء

القبيح، ولذلك نقضي الحاجة في ستر؛ لأن حاجتنا كريهة فنخفيها.

وقالوا: من الأدب ألا تجهر بصوتك في المجتمع؛ لأن ظهوره عيب لا يتفق مع أصول اللياقة والتهذيب، وعبروا بالكتابة والاستعارة والإشارة البعيدة عن المقصود؛ إمعانًا في الخفاء وطلبًا للأدب.

روى القدماء أن أبا العلاء المعري حضر مجلس الشريف الرضى، ولم يكن يحب المتنبي، فأخذ يقدح فيه، ثم سأل المعري عن رأيه، فقال: «لو لم يكن له إلا القصيدة التي مطلعها «لَكِ يا مَنَازِلُ» لكفى». فغضب الشريف الرضى، وقال: اسحبوا هذا الأعمى من مجلسي، ولم يفهم الحاضرون المقصود، حتى تبين لهم أن غرضه من القصيدة هذا البيت:

وإذا أَتَتْكَ مَذَمّتي من نَاقِـصٍ فَهيَ الشّهادَةُ لي بأنّي كامِــلُ

فانظر إلى الأدب وتأمل جوهره؛ تجد أنه سمو عن الابتذال، وترفُّع عن الإسفاف، فلا غرابة بعد ذلك أن يتنافى الأدب والانكشاف.

ولكن الأدب شاق؛ لأنه يتطلب معارضة الطبيعة الحيوانية المركبة في الإنسان، ولك أن تختار بين السهولة الحيوانية ومشقة الإنسانية.

وقد رأينا من استقراء التاريخ أن الدول التي تمسكت بالآداب ارتقت مدارج الحضارة، حتى إذا كشفت أدبها، سارت في طريق التقهقر والانحطاط.

فإذا شاءت مصر أن تسلك سبيل الرقي، فعليها بطريق الأدب الشاق، وإذا أرادت أن تظل متخلفة، أو أن يزيد تخلفها، فعليها بالأدب المكشوف.

الذوق والمجتمع

الذوق إحساس بالجميل، أو هو الاستحسان والاستهجان، فلا غرابة أن يكون الذوق شخصيًّا يختلف باختلاف الأفراد من حيث الطبائع الموروثة والأمزجة المتباينة، والثقافات المختلفة، والبيئات المتعددة التي ينشأ فيها كل فرد. والطبع والمزاج والثقافة كل أولئك صدى المجتمع الذي تعيش فيه. فإن قال قائل: إنَّ الطبع شخصي والمزاج فردي، قلنا: ولكنه موروث عن الآباء، وقد يرث أحدنا خصلة عن أحد أجداده وأخرى عن جده الأبعد، فالمرجع في نهاية الأمر إلى الآباء والأجداد، والأسرة -كما قال أرسطو- هي الخلية الاولى في بنيان المجتمع.

فالذوق جملة أشياء ائتلفت، ثم صُهرت في بوتقة الفرد، ولكن مصدرها المجتمع.

وقد يُقال الذوق على هذه الجملة المؤتلفة، كما يُقال على ما نتذوق به، وهو جملة مؤتلفة أيضًا.

خذ مثلًا هذا الشخص في لباسه، يُعنى باختيار ألوان ردائه، ورباط عنقه، ولا ينسى أن يضع منديلًا يبرز منه طرفًا يسيرًا من جيب ردائه، ويضيف إلى ذلك كله وردة يضعها في عروة الرداء ويميل إلى ناحية، ويجعل زره في زاوية خاصة، ويتضمخ برائحة عطرية تفوح كلما أخرج منديله.

هذه الجملة المؤتلفة التي ذكرناها هي ذوق ذلك الشخص، إنه أشبه باللوحة الفنية التي يرسمها المصور، والفرق بين الشخص واللوحة، أن الشخص حيٌّ متجدد يتغير مع تغير الزمن، واللوحة ثابتة تدل على فترة واحدة من زمان هذا الشخص.

وفرق آخر هو أن إيثار صاحبنا لهذه الأمور كلها هي ذوقه في نظر نفسه، أما لوحة الفنان فهي ما رآه في هذا الشخص، أي هذا الشخص في نظر الفنان، فهي تدل على ذوق الفنان. ولو أننا طلبنا من عدة فنانين أن يرسموا صورة لشخص واحد، لاختلفت أذواقهم، وتباينت لوحاتهم، مع أن الشخص واحد. ويزيد هذا الاختلاف إذا كان الفنانون من بلاد مختلفة وثقافات متباعدة، كأن يكون أحدهم صينيًّا والآخر إيطاليًّا؛ ولذلك اختلف الفن الإسلامي -مع أن الإسلام دين واحد- باختلاف الأمم التي انتشر فيها، فهو في الصين غيره في إيران، وهو في تركيا خلاف ما نجده في مصر. ويرجع ذلك إلى أن الذوق يَنْبُع عن المجتمع ويتكون المجتمع من تقاليد وعادات وآداب وثقافات تنتقل من جيل إلى جيل وتثبت على مر الزمان.

هذه الجملة المؤتلفة، كما تبدو في المظهر المحسوس مما نراه من زيِّ الأفراد، تبدو في كل عمل وفي كل سلوك وفي كل تفكير؛ لأن كل عمل يتألف من أجزاء كثيرة، ولكنه ينتهي إلى جملة واحدة مؤتلفة. وهذا مهندس يبني بيتًا، وهذا طبيب يشيد مستشفى، وهذا قائد يرأس جيشًا، وهذا زعيم يسوس أمة.. كل واحد من هؤلاء عندما يصدر أمرًا يدخل في نطاق عمله، إنما يصدره عن جملة ذوقه فينم عن شخصيته، كذلك المفكر حين يكتب أو الشاعر حين ينظم قصيدة، تدل الكتابة على ذوق الكاتب، وتُفصح القصيدة عن ذوق الشاعر. والكتاب جملة ائتلفت من عناصر كثيرة هي الطبع والمزاج والثقافة والبيئة، نعني هذه التيارات الاجتماعية التي تسربت إلى نفسه وكوَّنت ذوقه، فكان الذوق عنوانًا على هذه الخلاصة.

وأظن أنك قد تعترض اعتراضًا له -ولا ريب- وجاهته، هو أن الجملة المؤتلفة قد تكون غير مؤتلفة، بل متنافرة، كالشيخ الذي يصبغ شعره ليتصابى، أو المرأة العجوز تضع الأصباغ لتبدو كالفتيات الصغيرات.

وهذا حق، وفي هذا الذوق وأمثاله تنافر؛ ولذلك يُسمَّى بالذوق القبيح، ويُسمَّى المؤتلف بالذوق الحسن.

ولكن ما ميزان الحسن والقبيح؟

هذه هي المشكلة الكبرى، وهي مشكلة معقدة؛ لأن الذوق -كما رأينا- ليس بسيطًا بل معقدًا، أو هو الجملة التي اجتمعت من أطراف

اجتماعية وشخصية كثيرة.

بل الذوق في نهاية الأمر إحساس، والإحساس شخصي، وإلا كيف تفسر استحسان فرد من الناس فاكهة معينة كالتفاح، وانصرافه عن فاكهة أخرى كالموز وكلاهما حسن، إنه الذوق الشخصي.

كذلك استحسان الرجل جمال المرأة، هذا يحب ذات اللون الأبيض، وهذا يحب ذات اللون الأسمر، وهذا يميل إلى النحيفة، وذاك إلى الممتلئة.

وقد حاول علماء التحليل النفساني أن يردوا الذوق إلى ما تأثر به كلٌّ منا في عهد الطفولة، والتمسوا علة الأذواق في النشأة الأولى، ومع ذلك فما علة استحسان الطفل قبل أن يتأثر بأهله وبيئته، وقبل أن تثبت في نفسه هذه التأثيرات.

ويلوح لنا أن مصدر الذوق هو المجتمع.

الأصل فيه هذا الإحساس الشخصي، ثم ننظر فنجد إجماعًا من الناس على استحسان شيء، فنقول هذا ذوق عام، أو ذوق المجتمع، وهذا هو مذهب تولستوي في الفن، يرجع به إلى إحساس الفرد، ثم يحكم بالأغلبية، كما هي الحال في الانتخابات.

فذوق الفرد مستمد من الذوق العام.

والذوق العام مؤلف من مجموع أذواق الأفراد، كالرأي العام المؤلف من جملة آراء الأفراد. غير أن الرأي العام إذا حللته، وجدت أنه ينشأ عن الصفوة الممتازة وعن أهل البصر، وقادة الفكر، وسائر

الناس لهم متبعون مقلدون. كذلك الذوق العام يقوم على عدة أفراد هم طليعة الذوق الذوق، ثم يحاكيهم أغلبية الناس. كما هو الحال في «الموضة» مثلًا.

وعلة ذلك، أنَّ الحكم في رأي أو الميل إلى شيء، يحتاج إلى ترجيع وإيثار، وليس ذلك بالأمر اليسير؛ إذ غالبًا ما نتردد أو نتذبذب فلا يعجبنا شيء، حتى إذا رأينا صاحب حكم اتجه إلى ناحية من النواحي، خرجنا من التردد وسايرناه في حكمه. وكثيرًا ما نتريث في تذوق الأشياء بل نتردد، ثم نطلع من هذه الحيرة اتباعًا لذوق الآخرين.

وهذا مُشاهد عند سماع مغنية مثلًا، فإنها قد لا تعجبنا إذا سمعناها منفردين، ولكن سماعنا لها جماعة، واستحسان بعضنا لها، وتعبير هذا البعض عن إعجابه بقوله: آه أو يا سلام! يجعلنا نميل معهم إلى الإعجاب والاستحسان.

وقد عرف المغنون هذه القاعدة النفسانية، نعني الإيحاء العام ومشاركة الناس وتقليد بعضهم بعضًا، فاستأجروا قومًا يسمّون في لغة العامة «المطبياتي»، وظيفته التهليل والتصفيق فيسايرهم باقي المستمعين.

لذلك صح ما قلناه من أن الذوق اجتماعي؛ لأنه صادر عن جملة التجارب الماضية التي يأخذها المرء من المجتمع الذي يعيش فيه، ولأن الذوق بمعنى الاستحسان يتأثر بحكم الجماعة تأثرًا كبيرًا، حتى ليعد الذوق اجتماعيًّا لا شخصيًّا، ولو أنه في أساسه إحساس شخصي.

شفـــاء

- التحليل النفساني
- الغمـــز واللمـــز
- الظاهـر والباطـن
- تخاف من العرائس
- كيـــف ننســـى
- الانشـــــــراح

التحليل النفساني

لا يزال هذا العلم أو الفن على كثرة ما كُتب فيه غامضًا، وهو علم، وهو فن كذلك، نعني أنه قواعد ونظريات وضعها الطبيب فرويد لتفسير مظاهر السلوك البشري، وهو فن لأنه طريقة للعلاج، وشفاء الأمراض النفسانية.

وأحسب أن الأقرب الحديث عن الفن قبل العلم، فقد نشأ في ذهن فرويد فنًّا حين كان يعالج، وقبل أن يظهر بنظريته. وليس اختلاف العلماء فيما بينهم حول هذا العلم إلا من اختلاف مزاولتهم المرضى، فلكل شيخ طريقته.

ابتدأ فرويد مع مدرسة شاركو الفرنسية بعلاج الأمراض العصبية بطريقة التنويم المغناطيسي، ولكن هذه الطريقة تؤدي إلى صعوبات كثيرة، منها أنه من الصعب تنويم كل مريض؛ إذ منهم من يأبى ويقاوم، والثانية أنه حتى إذا نام المريض فلا يجب أن يشفى، أي أن الشفاء لم يكن مضمونًا مؤكدًا عند استعمال التنويم المغناطيسي، وقد تأيد ذلك لديه عندما ذهب إلى مدرسة نانسي بفرنسا، وكانت تعالج بطريقة

التنويم، وتزعم شفاء كل طارق بالإيحاء، فلما اتصل بأطباء المدرسة أنكروا هذا الزعم. فعاد فرويد إلى فيينا، واشتغل مع طبيب آخر يُسمَّى «بروير» وجاءت سيدة في أحد الأيام إلى بروير فعالجها بالتنويم حسب المألوف، وكانت مريضة بالهستيريا، فرأى أنها وهي واقعة تحت التنويم تتذكر أشياء لا تستطيع تذكرها في اليقظة، فاتبع بروير طريقة «كلام» المريض ليستخرج ماضيه. واحتاروا في تسمية هذه الطريقة، حتى لقد اقترحوا لها اسم «التطهير»، كأن المتاعب والمخاوف التي تتراكم في باطن النفس تحتاج إلى تنظيف.

ثم انصرف بروير عن هذا الضرب من العلاج جملة؛ وذلك لأن إحدى مريضاته وقعت في حبه حبًّا شديدًا، مما جعله يعتقد في خطورة هذه الطريقة بالنسبة للطبيب، وفكر فرويد في هذا الأمر، ورأى أن المريضة لا تحب الطبيب لذاته، بل لأنه «بديل» عن شخص آخر، فنقلت الحب الذي تخفيه لحبيبها إلى شخص الطبيب، وقد استفاد منها هذه الحقيقة في تكوين نظريته، نعني نظرية البديل والانتقال.

نقول إن التحليل فن؛ لأنك إذا تعلمت قواعد هذا العلم من ألفه إلى يائه، ما استطعت أن تكون طبيبًا نفسانيًّا إلا إذا توافرت فيك موهبة خاصة مستمدة من مبدأ التنويم، نعني قوة التأثير والإيحاء من جهة، وقوة الجاذبية التي تجعل المريض يطمئن إلى الطبيب، وهذه القوى لا تتوافر في كل طبيب، بل لا يمكن تعلمها في بعض الأحيان. والعلة في ذلك أن المريض سوف يفضي بأسرار نفسه إلى الطبيب المعالج، فإذا لم تكن عنده ثقة في هذا الطبيب واطمئنان إليه، فسوف يتوقف عن

الحديث والكلام، والكلام هو أساس العلاج.

ونستطيع أن نشبِّه طريقة العلاج في التحليل النفساني بالاعتراف على يد القسيس؛ ذلك أن حفظ الجريمة في باطن النفس يجعل المرء يحمل عبئًا ثقيلًا لن يتخلص منه إلا إذا أفضى به، فإذا اعترف -ولو إلى صديق- أزاح عن نفسه عبء الشعور بثقل الذنوب.

وقد استفدت من هذه الحقائق في العلاج، ولذلك أنصح المريض باتخاذ الصديق الصادق الذي يستطيع أن يصارحه بكل شيء دون خجل. وأنصح بشيء آخر وهو الزواج، لا على أنه يحل مشكلة الصلة الجنسية، بل لأنه يربط الزوج بزوجة يحبها ويسكن إليها، ويودعها أسراره، ويفضي إليها بذات نفسه. فإذا انعدمت الثقة بين الزوج وزوجته، انهارت الحياة الزوجية ولم يعد محل لوجودها.

وللعلماء طرق شتى في الاستماع إلى المريض، وقد سموا الطريقة التي يتكلم بها باسم «تداعي المعاني»، أي أنهم يتركون المريض يتحدث، فالفكرة تدعو فكرة أخرى، ويظل في هذا التسلسل الحر دون مقاومة من العقل الواعي.

واشترط بعض الأطباء المعالجين شكلًا معينًا، أو على الأصح جلسة معينة للمريض، وذلك بأن يستلقي في كرسي ورأسه إلى الوراء، أو ينام على أريكة حتى يكون جسمه في استرخاء، ويفقد ضبطه لنفسه ومراقبته لأفكاره. ومنهم من يشترط في الحجرة شروطًا خاصة، في طريقة الإضاءة، وفي لون الأثاث وما إلى ذلك. ولست أرى إلا أن هذه

الوسائل جميعًا ظاهرية أو مظهرية لا تمس جوهر العلاج. يستطيع الطبيب أن يعالج مريضه في الطريق وهو يمشي إلى جانبه، ويستطيع أن يعالجه في أي حجرة، وفي أي جلسة، بشرط واحد لا بد أن يتوافر، هو ثقة المريض في الطبيب، ثم شيء آخر هو محبة الطبيب، أو كما يقولون بالأجنبية وجود «سمباتي» بين المريض والطبيب.

أما من جانب الطبيب، فينبغي أن يقوم بأمرين وهو يستمع إلى المريض: الأول: أن يلتفت إلى كل لفظة تصدر عنه، حتى ولو كانت تافهة، فقد تكون هذه الألفاظ التافهة ذات دلالة على طبيعة المرض، وقد تكون بدء الخيط الذي يهدي الطبيب إلى معرفة الداء. والثاني: أن ينظر إلى وجه المريض في حالة كلامه؛ ليتبين من ملامح الوجه الانفعالات التي تصاحبه. كنت أعالج مريضًا، أو على الأصح جاءني مريض يطلب العلاج، وكان طالبًا يشكو من تشتت الذهن إذا جلس للقراءة والاستذكار، فلما ابتدأت أسأله في العلاقات الجنسية، وقد اعترف أنه يتصل ببنات الهوى، لاحظت على وجهه حركة اشمئزاز، فعرفت من ذلك أنه ليس راضيًا عن الاتصال بالساقطات، وكان ذلك مفتاح الداء، أو هو العلة، نعني الصراع النفسي بينه وبين نفسه، أيُقبل على النساء الساقطات، وهذا أمر ينهى عنه الدين وتشمئز له النفس، أم ينصرف بتاتًا عن العلاقات الجنسية، وهو شاب قد جاوز العشرين؟ هذه هي العقدة، إذا حُلَّت ارتاح المريض.

وليس من الضروري أن نترك المريض يتحدث على هواه في عدة جلسات تستنفد وقتًا طويلًا، ويتقاضى الطبيب عن كل جلسة أجرًا؛ إذ

يمكن اختصار الوقت، بأن يوجه الطبيب إلى المريض أسئلة خاصة تضرب في الموضوع إلى الصميم، وكلما انكشفت له مسألة، انتقل إلى غيرها، حتى إذا عثر على المفتاح الذي يهديه إلى علة الداء، جعل الأسئلة كلها تدور حول هذا المحور.

❊ ❊ ❊

الغمز واللمز

قال صاحب المصباح: غمزه غمزًا: أشار إليه بعين أو حاجب. وقال الفيروزآبادي في المحيط: غمز بيده شبه نخسه، وبالعين والجفن والحاجب أشار، وبالرجل سعى به شرًّا. والأصل في اللمز الإشارة بالعين ونحوها، والعيب أيضًا.

فالغمز حركة تبدو في الغالب على الوجه، وعلى التخصيص في العين، فهو إشارة، والإشارة تعبير، والتعبير لغة، واللغة دلالة على معنى يخطر بالبال، أو شعور يختلج في النفس.

فإذا تأملت شخصًا من الأشخاص، رأيت من ظاهره غمزات يختص بها، هي أشبه باللوازم التي لا يستطيع عنها حولًا، ولكنها على كل حال دليل على نفسية هذا الإنسان.

ويذهب فرويد صاحب التحليل النفساني إلى أن كل ما يصدر عن المرء، حتى لو كان تافهًا، فهو معبِّر عن باطن هذا الشخص، بل إنه ليعتمد على هذه الاختلاجات القسرية في معرفة حقيقة النفسية الباطنة.

وهذه إحدى الطرق التي يعتمد عليها في التحليل النفساني بعد النظر في كلام المريض، نعني الحركات والإشارات وسائر ما يظهر على الوجه من تعبيرات، أو ما نسميه تجوزًا بالغمز واللمز.

والأساس الذي يعتمد عليه فرويد في مذهبه هو أن حياة الفرد خاضعة للأسباب والمسببات، فهناك حتمية نفسية لا مفر منها ولا مهرب عنها، وكل إشارة تدل على شيء وتحمل معنى من المعاني الذي يقصد إليه المرء، إلَّا يكن عن شعور، فهو عن اللا شعور.

وأظهر حركات الغمز ما يظهر من المرأة وهي ترقِّص حاجبها حين تتكلم، وهي لا تقصد بذلك إعانة السامع على الفهم، بل تقصد إلى الإشارة الخفية إلى الرجال، تلفت نظرهم، وتدل على وجودها، وتوحي إليهم أن يسعوا إليها، وهذه فطرة الأنثى التي تعمل على اجتذاب الذكور. وقد تعمل إحداهن هذه الحركة تقليدًا، ولكنها تدل على أنها قد صادفت من نفسها هوى.

وليس هذا من حسن الأدب، وقد نهوا عنه، وهو أشيع في العامة منه في الطبقة التي تحكم نفسها وتؤدب أبناءها وتهذب الفطرة الأولى، فالمرأة التي تفعل هذه الغمزة لعوب تُعجب بذاتها وتسعى إلى فتنة الرجال.

أما الرجال فإذا غمزوا بالعين والحاجب، وكانت الغمزة ثابتة في الطبع، فإنها تدل على الرغبة في إخفاء بعض الأسرار، والإشارة إلى السعي بالضرر والوقيعة، وفي ذلك قيل: إن كل لبيب بالإشارة يفهم.

وكأنه بهذه الإشارة يدل على عيب من يتحدث عنه، فيقول: لقد ربحت تجارته، ثم يغمز بعينه، فتكون الغمزة دليلًا على أن الربح من طريق غير حلال. ومن هنا جاء نقل معنى الغمز واللمز من مجرد الإشارة والتعبير إلى العيب، فكانت المغامز هي المطاعن في الناس، وقد نهى اللهُ عنها، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] قيل نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة أو في أمية بن خلف أو غيرهما، واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وغضه منه. كأن الهمزة واللمزة هو الذي أصبح عنده الطعن في الناس ملكة راسخة فيه. ويعنينا في هذا الصدد أن هذه النزعة الباطنة تصحبها الإشارة الظاهرة، فنستدل على الظاهر بالباطن، وبذلك يصح مذهب فرويد. وهناك غمزات أخرى، بمعنى الإشارة لا بمعنى العيب، تظهر على الوجه وتنبئ عن أمور خفية باطنة. ونحن نعلم من التحليل النفساني أن الإنسان كثيرًا ما تنتابه أمور يحاول جهده أن يخفيها؛ لأنها لا تتفق مع الدين أو العرف والتقاليد. غير أن هذه الأمور مهما يحاول صاحبها إخفاءها فلا بد أن تظهر، وأن تعبر عن نفسها، قال الشاعر:

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ

وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

جاءني شاب يطلب التحليل، ورأيت على وجهه إشارة فهمت منها أنه يستعمل العادة السرية، بل إنه يسرف في عملها، وهذه الإشارة هي لوكة الفم كالذي يستدر ريقه، فضيقت عليه الخناق في السؤال، فلم

يستطع الإنكار، وقد لاحظت انتشار هذه الحركة عند الشباب بوجه خاص، ولا تجدها عند الكهول.

وحركة أخرى لا تخطئها العين؛ لأنها تبرز في الخد وعند ركن الفم، وهي الدليل على التقزز والاشمئزاز. والأصل فيها أنها حركة عصبية غير إرادية تحدث عند تناول طعام لا ترتاح إليه النفس، ثم تنتقل حركة التقزز والاشمئزاز إلى نظرة المرء من هذه الدنيا، فلا تعجبه أحوالها. والمتشائمون أكثر الناس غمزًا بوجههم، وإشاحة عن الناس، وهنا تجتمع الغمزة -بمعنى القدح في الأعمال والعيب في الناس- بالغمزة، وهي الإشارة عن التقزز والاشمئزاز.

وقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الأمراض النفسانية ترتد إلى علل جسمية وحاولوا علاج النفس بعلاج الجسم، وهو مذهب فيه كثير من الصواب، ولكنه ليس صوابًا كله. وأكبر الظن أننا لو عالجنا معدة المتشائم أو كبده، أو أي عضو آخر من جسمه يكون مريضًا، لارتاحت نفسه، ونظر إلى الدنيا نظرة أخرى فيها كثير من الابتسام وكثير من التفاؤل، وبطلت الغمزات التي يختلج بها وجهه، وتدل على الاشمئزاز والضيق والتبرُّم، وذهب عنه الحسد والحقد الذي يملأ قلبه، فيدفعه إلى مهاجمة الناس والنيل منهم والقدح فيهم، وبطل ما يبدو فيه من الغمز واللمز.

قالوا: وهذه الغمزات أو الإشارات الثابتة والاختلاجات المتأصلة تلح على صاحبها، ويصعب عليه الإقلاع عنها.

ذهب أحدهم إلى طبيب، فأجرى له عملية جراحية في العضلة التي تختلج في وجهه، واستأصلها، فظهرت الاختلاجة في مكان آخر، مما يدل على أن العلة أعمق.

وقالوا: إذا كان المرء هادئًا منبسط المزاج، قلَّت هذه الغمزة أو الاختلاجة، فإذا اهتاج وثار أو انفعل، ازدادت وظهرت، فالداء جسماني لا نفساني.

* * *

الظاهر والباطن

سألني شاب من طلبة الجامعة علاجًا يزيل الهم ويدفع القلق ويجلب الهدوء والاستقرار. فوصفت له علاجًا سريعًا أكبر الظن أنه قد يفيد، فقلت له: احلق ذقنك. وكان -على شبابه وصغر سنه- يرسل لحيته، أو على الأقل لا يحلقها بحيث لا تترك أثرًا من الشَّعر. وعجب الشاب من هذا الكلام، ولم يطمئن إليه، ولعله فهم أنني أسخر منه، أو أنني أعبث به، فسأل عن العلة في ذلك.

قلت له: ظاهر الإنسان دليل على باطنه، وإرسال اللحية شيء ظاهر يدل على مخالفتك للإجماع من جهة، وعلى عدم العناية بنفسك من جهة أخرى.

قال: وهل تعتقد أن تغيير الظاهر يفيد في تغيير الباطن؟

قلت: هذا مذهب من مذاهب علم النفس معروف، ينسب إلى صاحبه، وليم جيمس المشهور، وقد اشترك معه في بسط هذه النظرية عالم آخر يُسمَّى لانج، فسمِّيت النظرية باسمهما معًا أي جيمس لانج. وخلاصة النظرية أن الباطن يؤثر في الظاهر، وأن الظاهر يؤثر في

الباطن. والمقصود بالباطن هنا المشاعر النفسانية الداخلية كالحزن والفرح والألم واللذة والخوف والرجاء والقلق والغضب وما إلى ذلك، وكل حالة من هذه الأحوال التي تشعر بها تؤدي إلى مظاهر جسمية خارجية مشاهدة، أو الأصح أن تقول إنه في الوقت الذي توجد فيه هذه الحالة تصحبها مظاهر خارجية؛ فالحزن يصحبه البكاء، والفرح الضحك، والخوف اصفرار ووجل. وكما أنك إذا حزنت اغرورقت عيناك بالدموع إذا كان الحزن شديدًا، كذلك إذا تعمدت إنزال الدموع من عينيك شاع الحزن في نفسك. وفي ذلك قالوا: اضحك يضحك لك العالم؛ لأن الضحك في ذاته -مع أنه مظهر خارجي- يفْضي إلى إشاعة السرور في النفس، وقد يكون المقصود من هذا المثل السائر شيئًا آخر هو نظرة الإنسان إلى العالم أهي نظرة تشاؤم أم تفاؤل، نظرة سوداء قاتمة أم نظرة بيضاء باسمة.

قال صاحبنا: إني لا أحلق ذقني لأني لا أهتم بذلك.

قلت له: وهذا ما أريد أن أصل إليه، أن تهتم بنفسك وتُعنى بها؛ لأن عدم الاكتراث بالنفس والمجتمع الذي تعيش فيه ضعف، وهروب من الواقع، وابتعاد عن موكب الناس، ولذة الإنسان في مسايرته للجماعة؛ لأن الاجتماع فطرة فيه، والعزلة شذوذ.

الواقع أن اعتراض الشاب وجيه؛ لأن العلة الدفينة لا يكفي في ذهابها مظهر براق، فالمظهر يغطيها ولكنه لا يزيلها. مَثَلُ الباطن والظاهر مثل خراج في داخل الجسد وصديد يظهر على سطح الجلد،

ولا خير في علاج الصديد بأن تلفه بأربطة نظيفة، بل ينبغي استئصال الداء من أساسه، وعندئذ فقط ينقطع هذا الصديد الظاهر.

وأول من نظم العلاقة بين الباطن والظاهر، وفسر الظاهر بالباطن، هو فرويد -صاحب مذهب التحليل النفساني- وهو يقسم الحياة الإنسانية قسمين: الشعور واللا شعور، فالشعور هو هذا السلوك الذي يبدو لنا ونشعر به، واللا شعور أمور باطنة موجودة في داخل النفس وتؤثر فينا من دون أن نشعر. إننا نحاول إخفاءها وأن نسدل عليها الستار، ولكنها مع ذلك تظهر بين حين وآخر. وقد اعتمد فرويد في تحليله النفساني على ثلاثة أشياء، الأول: الاستماع إلى كلام المريض؛ فقد تبدو منه لفظة تعد من فلتات اللسان وتعبر عن مكنون النفس، فيتلقفها الطبيب ويمسك بها أول الخيط الذي يهديه إلى «العقدة النفسية». والثاني الإشارات والملامح والإيماءات، ولذلك يلتفت الطبيب -وهو يستمع إلى المريض- إلى كل إشارة تصدر عنه؛ لأنها تنمّ عن باطنه، وقد تكون هذه الملامح ثابتة مع الإلف والعادة، مثل إرسال اللحية عند صاحبنا الذي نتحدث عنه. والثالث تفسير الأحلام، وهي عند فرويد ذات دلالة قوية على سريرة النفس؛ فالصور التي يراها النائم في حلمه رموز تعبّر عن رغباته الباطنة، والعقل البشري يلجأ إلى هذه الرموز إمعانًا في الإخفاء، ولكنها لا تخفى عن المفسر الماهر.

ويحاول فرويد أن يفسر جميع الظواهر الإنسانية تفسير جنسيًّا، ووضع قاموسًا للأحلام يستند إلى هذا الأساس، فالشجرة والعصا وفرع الشجرة وكل شيء طويل، يدل على عضو التناسل الذكر،

والصندوق أو العربة وكل شيء مقفل يدل على عضو الأنثى. وهذه -ولا ريب- مغالاة في التفسير، ولنا في تفسير الرموز التي تظهر في الأحلام رأي آخر ليس الآن موضع بسطه.

والإخفاء قد يكون مقصودًا وقد يكون غير مقصود. ولسنا نجد أنواع الحيوان تنقسم إلى ظاهر وباطن كما هي الحال في البشر. ومن النادر أن نجد إنسانًا ظاهره هو باطنه. وهل تستطيع أن تعلم إذا سلمت على شخص فَرِحَ بك وهشّ إليك وابتسمَ لك أنه يحبك ويريدك، ومن يدري لعله يستثقلك ويود مفارقتك، ولكنها الضرورة الاجتماعية، أو آداب السلوك، أو ما يعبر عنه بالاصطلاح الأجنبي «بالإتيكيت» الذي يقتضي حسن الوفادة وإظهار السرور حين الاستقبال، وما في القلب في القلب، وهذا هو الرياء أو النفاق.

ولا يستطيع كل واحد أن يضغط على عواطفه ويخفي ما في صدره ويظهر خلاف ما يبطن، فهذه موهبة لا يعرفها إلا البارعون في صناعة التمثيل، ومن أقوال شكسبير: إن الإنسان ممثل على مسرح الحياة. ويقول الشاعر العربي:

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ

وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

أما الإخفاء غير المقصود، أو التلقائي، فموجود عند كل شخص بطبيعة الحياة الإنسانية التي تقتضي منذ الصغر إخفاء كثير من الأمور، وأبرزها الحياة الجنسية وما يتصل بها من حب وبغض، وهذا الإخفاء،

أو الكبت في لغة علم النفس، مفيد للحياة الشخصية، فالأم التي تفقد ابنها الوحيد لو ذكرته على الدوام لاستمر حزنها وأفسد صحتها، ولكن الطبيعة تدفعها إلى النسيان حفظًا لحياتها. فإذا ألحَّت في التذكُّر فقد تُصاب بمرض النسيان، حتى إذا سُئلت عن ابنها أنكرت أنها كانت ذات ولد. فانظر إلى الطبيعة وكيف تعمل على حفظ الكائن.

خُذ مثلًا الكرم، فهو خصلة أخلاقية ظاهرة، وهو من صفات الأعراب؛ لأن البدو مضطرون إلى ذلك، فإذا حل ضيف في الصحراء فأين يأكل إذا لم يُقدم له مضيفه الطعام. ولكننا نعيش في المدينة حيث الحاجات متوفرة، ويعيش كل إنسان بنظام خاص، وفي حدود خاصة، فكيف يكون المدني كريمًا مع هذه الظروف. في مصر لا يزال الناس يعيشون كما كان البدو يعيشون، أي يضطر صاحب البيت إلى الاستدانة حتى يقوم بواجب الضيافة، وهو يلعن في سره ذلك اليوم الذي حل عنده الضيف.. إنه يفعل في ظاهره على خلاف باطنه. أما في إنجلترا فلا يُقدِّم صاحب الدار لزائره شيئًا، بل لا يستقبله إلا بميعاد سابق، ولعله حينئذ يقدم له فنجانًا من الشاي، وهؤلاء قوم يواجهون الحياة الواقعية بما فيها من حلو ومر، ولا يحاولون أن يكون الفرق بين باطنهم وظاهرهم كبيرًا، حتى لقد كان الوزير في أثناء هذه الحرب يلبس بدلة مرقعة ولا يأنف من ذلك.

فإذا شئنا الإصلاح الحقيقي، فعلينا بعدم الإسراف في المظاهر، حتى يكون الظاهر مطابقًا للباطن.

تخاف من العرائس

قالت إنها تخاف من العرائس، فتبادر إلى ذهني أنها تخاف من الفتيات في سن الزواج، وقد أعلنت خطوبتهن وأصبحت الواحدة منهن «عروسة»، كما هو الاصطلاح في تعبير العامة. وأيد هذا الظن أن السائلة فتاة حول العشرين من عمرها، فقلت لها: ولماذا تخافين من العرائس، هل ترهبين الزواج ولا تريدينه؟ قالت: لا، ليس الأمر كذلك، فإني أعني تلك العرائس التي يصنعها الناس للزينة أو التسلية، ويتخذها الأطفال أداة للهو واللعب والعبث. ثم نطقت بالفرنسي «پوبيه».

ورأيت أن الأمر ليس سهلًا كما تصورت في أول الأمر، فطلبت منها زيادة الإفصاح والبيان.

هذا وأنا آخذ حالة الفتاة مأخذ الجد، فهذا أول شرط في التحليل النفساني.

قالت: إني أخجل من نفسي خجلًا شديدًا، ولا أحب أن أفضي لأحد بأمري حتى لا يهزأ بي، فأنا أعلم أن العرائس لا ضرر منها، وهي

لا تؤذي، ولا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ثم إني بلغت من السن ما لا ينبغي أن ينزل بقلبي الخوف من هذه الأشياء التي لا تليق إلا بالصغار من الأطفال. وبلغتُ من الثقافة ما أعلم معه علم اليقين أننا نحن الذين نصنع هذه العرائس بأيدينا. فكيف نخاف منها؟

وكانت حقًّا على درجة من الثقافة؛ فقد تلقت العلم في مدارس فرنسية، وهي تشتغل الآن مدرسة في مدرسة ابتدائية.

ثم استطردت قائلة: فأنت ترى أن هذه الحالة تسبب لي متاعب كثيرة، وترهقني من أمري عسرًا. فأنا لا أطيق أن ألمس «عروسة»، واضطرب اضطرابًا شديدًا إذا دخلت حجرة فوجدت فيها شيئًا من ذلك فأخرج على الفور منها. ولهذا السبب رفع أهلي من البيت كل عروسة، وكل تمثال للزينة؛ لأنني أخاف كذلك من التماثيل. وإذا علمت أن صديقة من صديقاتي تحتفظ في بيتها بعرائس أو تماثيل، أبيت أن أزورها دون أن أبدي السبب الحقيقي؛ لأنه مضحك حقًّا.

ثم إني لا آمن إذا دخلت بيتًا، ودخلت في غرفة تخلو من العرائس، أن يدخل علينا طفل يلهو بعروسة في يده، وعندئذ يحدث لنفسي هذا الخوف الذي يبلغ حد الفزع، فأستأذن في الحال وأنصرف، وأنا في موقف شديد الحرج بالنسبة إلى نفسي بالنسبة إلى صديقتي.

ثم تصور أن لي أختًا تكبرني سنًّا، وهي متزوجة وذات أطفال، وقد حرمت على نفسها شراء العرائس لأبنائها حتى يتيسر لي زيارتها، وتستقبلني في دارها. فانظر مبلغ العنت الذي كنتُ سببه.

قلت لها: لعل هذه العرائس قبيحة المنظر، تخيف حقًّا، فهي لذلك تبعث على الرعب.

قالت: الغريب أن العروسة كلما زادت جمالًا ازددت خوفًا.

فالتقطت منها هذه الكلمة، أعني «العروسة الجميلة»، وقلت في بالي هذا مفتاح أعلم منه سر نفسها. ثم ذهبت ألاحقها بسؤال عن ذكريات الماضي وعهد الطفولة؛ إذ كانت العقد النفسية تتكون في الصغر، بل الصبا المبكر.

قالت إنها لا تذكر متى بدأ خوفها من العرائس، ولكن أهلها يقولون إنها وهي طفلة صغيرة تخاف منها. وأقدم ذكرياتها التي تعيها، أنهم كانوا يضعون تمثالًا من الجبس على هيئة امرأة ذات ملاءة سوداء فوق الشباك بالقرب من سريرها، وكانت رؤية هذا التمثال تفزعها وتبعث في خيالها أشنع الأوهام.

وهذا كله معقول، فالطفل الصغير قاصر الإدراك، وقد يكون أصل هذا الخوف ومبعثه إيحاء بعض أخوات هذه الفتاة وقولهم لها ما يثير الخوف، فصدقتهم، واستمرأوا هذا العمل ومضوا فيه، وأصبحت الفتاة الصغيرة ترهب هذه العرائس، وترتعش أو ترتعد عند رؤيتها، وثبت في نفسها هذا الخوف مع الزمن، وأصبح كما يقولون «عقدة نفسية».

قالوا إنَّ حلَّ العقدة النفسية يكون بمعرفة صاحبها لها، واستخراجها من باطن النفس وأغوار الماضي فيبرح عنها الخفاء. وقد علمت صاحبتنا بأمر هذه العقدة، وعلمت أن ليس في العرائس ضرر،

فما هو السر إذن؟

فانصرفت إلى البحث عن هذه «العروسة الجميلة» التي تخاف منها، وألتمس في الجمال علة الاضطراب.

وكان من الواضح أن السائلة غير جميلة.

وشرعت أسألها عن أخواتها وعن علاقتها بهن، ولها أختان شقيقتان إحداهما تكبرها بثمانية أعوام، والثانية بعامين، والكبرى متزوجة وصاحبة ولد، والصغرى لم تتزوج بعد.

وتبين من نبرات صوتها عند الجواب أن بينها وبين أختها الثانية أشياء وأمور؛ فهي أجمل منها، وأكثر منها حظًّا في التعليم، وتشغل منصبًا أفضل منها.

وألححت في السؤال، فقالت إنها تحترم أهلها وأخواتها، وقد رباها أبوها تربية صالحة، وعلمها أن تقف من أخواتها موقف المحبة والاحترام.

ولكن الغيرة لا تعرف التقاليد والحدود الاجتماعية. والواقع لقد قامت الغيرة الشديدة بين صاحبتنا وبين شقيقتها منذ الصغر، فهي أجمل منها وأحسن منها حظًّا في التعليم، وأرقى من حيث المنزلة الاجتماعية، فضلًا عن الغيرة الطبيعية التي تنشأ بين الأختين إذا كانتا متقاربتين في السن.

إذَنْ فهي في صراع بين الواجب والواقع، بين واجبها نحو أختها وأهلها، وبين طبيعة نفسها التي تحدثها بالغيرة.

ولكن ما شأن أختها والخوف من العرائس؟

ولقد حدث عندها ما يُعرف في علم النفس باسم التحويل Transfer، فقد حولت خوفها من العرائس، وهي الدُمى التي يُلعب بها، إلى أختها، لما بين الاثنتين من مشابهة في معنى «العروسة»، والعروسة عند العامة هي الفتاة المخطوبة إلى عريس، أو هي الفتاة في سن الزواج، فالأخت عروسة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وأكبر الظن أن الشخص الذي كان يخيفها في الصغر، أي وهي في سن الثانية من عمرها، هي هذه الأخت.

وإذن فقد تعقدت العقدة، وتحولت من مجرد الخوف من العرائس المصنوعة للهو، إلى الخوف من «العروسة الجميلة»، وهذا سر قولها إن العروسة كلما كانت جميلة كان خوفها أشد، وكأن أختها أصبحت رمزًا حولت إليه خوفها وغيرتها وبغضها.

ويؤكد هذا كله ما ذكرته من أنها لا ترغب في الزواج وتمانع فيه، أو على الأقل كانت تمانع إلى عهد قريب.

ويؤيد ذلك أيضًا أنها تخشى الأطفال الحديثي الولادة، أي الذين في سن الرضاعة، قالت إنها ذهبت عند أختها الكبرى وهي متزوجة وذات أطفال، وعرض لأختها أمر يقتضي أن تخرج من الغرفة على عجل، فأعطت ابنها الرضيع إلى صاحبتنا، والتمست منها أن تهدئ من روعه إلى أن تعود. وحملت الفتاة الطفل بين يديها، وهي ترتجف من شدة الخوف، وكادت تلقي به إلى الأرض.

ونصحها الناس بأن تصنع عروسة من قماش، لعل ذلك يجعلها تألف بطريقة عملية هذه العرائس فلا تعود ترهبها. وفعلت ذلك، فقصَّت القماش، ووضعت داخله القطن، حتى أوشكت العروسة أن تكتمل، وصورت رأسها، ولم تستطع أن تمضي في صنعها إلى النهاية، وبرز الخوف في نفسها.

وليس العلاج عسيرًا، فإذا عُرف السبب بطل العجب وذهبت آثار الاضطراب، والمهم أن تقتنع المريضة بصحة الأسباب، وأن تعمل على علاجها.

أما عن السبب الأول، وهو الخوف من العرائس الذي كان يقع في الصغر، وصحبها إلى الكبر، فيرجع إلى الوهم والتهويل. وقد عرفت أن هذا الوهم باطل ولا ينبغي التهويل فيه.

أما عن السبب الثاني، وهو الغيرة من أختها، فقد وجدتُ بعض المشقة في ترويض نفسها على المحبة الأخوية الصادقة، ذلك أن القضاء على الأحوال النفسية التي تثبت في النفس مع طول الزمن من أشق الأمور، مثلنا في ذلك مثل من يعتاد التدخين أو لعب الميسر أو شرب الخمر، لا يسهل عليه أن يقطع عادته التي ألفها بين يوم وليلة.

وقد رسمنا لها الطريق المؤدي إلى كبح جماح الغيرة، وفي القضاء على الغيرة من أختها، وعلى وجه الخصوص القضاء على خوفها الموهوم من العرائس.

والعلاج الحاسم هو الزواج.

كيف تنسى

سمعت في المذياع أغنية مشهورة لعبد الوهاب باللغة العامية يقول فيها:

انسى همومك وخلي قلبك خالي

واحبس دمعك دا دمع عينك غالي

فقلت في بالي: والله لقد أصاب الناظم الحق، وأخلص في النصح، ولكنه لم يَبِنْ السبيل، وليس النسيان أمرًا يسيرًا، بل هو شاق عسير.

ولعلك تعجب كيف ينصح الناصح بالنسيان، مع أن الناس ينشدون التذكر، ويشكون من كثرة النسيان. وأشد الناس شقاء بطلب التذكر هم الطلبة؛ لأنهم يحاولون استذكار علومهم حتى يؤدوها في امتحان آخر العام، فيسهرون لذلك الليالي وينظرون في الكتب مرارًا وتكرارًا، ولكنها لا تثبت على حال. فكيف ينصح الناصح بالنسيان؟ ولماذا؟

حقًّا تعتري الإنسان أمور لا يجد بدًّا من أن يخفيها عن نفسه؛ لأن ذكرها يثير في نفسه الكوامن، ويهيج منها الأشجان، ويجدد الأحزان،

بل قد يصل به الألم إلى حد البكاء. أعرف سيدة اختطفت المنية ابنتها وهي في ميعة الصبا، فلم يغمض لأمها جفن ولم تجف لعينها دمعة سنتين، حتى هزلت واضطربت وساءت بها الأحوال، ولعلك تسأل ما حالها الآن؟ لقد نسيت مع الزمان، وهذه سُنَّة الطبيعة، فكل شيء يُنسى مع البعد والترك، وقيل في الأمثال «البعيد عن العين بعيد عن القلب». وقيل أيضًا «آفة العلم الترك»، ولكن ما الحيلة إذا كانت العلة حاضرةً على الدوام، ولا تبعد عن العين، وقد تظهر مع الأوهام.

ونحب قبل أن نذكر الدواء أن نشخص الداء، فنقول إن أسباب الهموم ثلاثة: مادية، وعاطفية، واجتماعية.

أما المادية فترجع إلى عاهة تصيب الإنسان إما من أصل المولد، كالذي يُولد شديد القصر فيرى نفسه بالنسبة إلى غيره من الناس شائه القوام، وإما يكون ذا عضو من أعضاء البدن غير متناسب. كتب إلي أحد الناس يقول إن أنفه ضخم كبير إلى حد يشوه وجهه، وإن النساء تسخر منه، فكيف يفعل مع هذا الداء الذي ابتُلِيَ به، فأجبته قائلًا: إن الجمال جمال النفس لا جمال الوجه، ولقد كان سقراط من أقبح خلق الله، ومع ذلك اجتذب شباب الأثينيين بحسن منطقه ولطف سيرته. وقد أصبح من الميسور -بعد تقدم العلم- أن تصلح العيوب الجسمية، فيبدو المرء في صورة طبيعية، إلا ما كان مما لا حيلة للطب فيه، وما لا ينفع فيه علاج.

والعلة الثانية هي العاطفة تلك التي تمس القلوب، وهي تلك

التي عناها الشاعر وغناها المغني، نقصد هجر الحبيب، وفقد الولد، وانقطاع حبل الصداقة. وهذا طبيعي؛ لأن الحب والأبوة والأخوة والبنوة والزوجية والصداقة تنشأ كلها بعد إلف واعتياد، وتتأصل مع طول الزمان، ولذلك يتألم كل واحد من هؤلاء إذا فقد أليفه. وفي ذلك قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا، وتشكو ألم الذكر، فقالت:

يُذَكّرُني طُلُوعُ الشمسِ صَخرًا وأذكرُهُ لكلّ غُروبِ شَمْسِ

وقال مجنون ليلى:

أُرِيدُ لأنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَـــا تمثَّلُ لي ليلى بكلِّ سبيـــلِ

والعلة الثالثة هي الاجتماعية التي تمس المنزلة. ومنها خلقية تسيء إلى سمعة صاحبها، كالذي يُضبط في بيت من بيوت الدعارة، فهذا شيء لا يليق ولا يود ذوو المنزلة أن يُعرف عنهم ذلك، فهم يستخفون، فإذا وقعت الواقعة لجأوا إلى الحيلة.

قرأت في الصحف قصة ذلك الذي دخل عليه بوليس الآداب، فرأى في الشرفة حصيرًا يتحرك وضبط فيه -فيما يُقال- شخصًا محترمًا، فانظر كيف يتوارى مثل هذا الإنسان.

وهناك أمور تمس المنزلة الاجتماعية على نحو آخر هي المركز الأدبي، ولذلك يتألم الموظف إذا فاتته ترقية. ولعل أعجب ما في نظام الحكومات هو هذا النظام الذي يسمونه بالدرجات التي ترفع بعضهم فوق بعض، مع أن الديموقراطية الصحيحة تقضي بالمساواة متى تساوت المؤهلات.

وقد تخدش المنزلة لأمور اعتبارية تجري مع التقاليد، كمن يسمع قذفًا أو سبًّا أو اعتداء على العرض. والأخذ بالثأر في أهل الصعيد مشهور معروف، فلا تنام عين أحدهم حتى يقتل من قتل أباه أو أخاه، ولو مضى على ذلك الحادث سنين عدة.

فهذه هي جملة الأمور التي لا تخرج عنها الهموم، فكيف السبيل إلى علاجها؟ وما هي الوسائل التي ننصح بها كي نبلغ النسيان؟

الحق أن الطبيعة تهدف دائمًا إلى الخير، وهي تعمل لصالح الكائن الحي بالفطرة. والطبيعة تعرف أن فرط الألم شديد الضرر، بالغ الأثر، فهي تعمل على تخفيفه بإحدى طريقتين: إما شيئًا فشيئًا، وإمَّا بالتدريج على مرّ الزمان، وإما دفعة واحدة، وهذا يفضي إلى نوع من المرض النفساني. فنحن نعرف أن كثيرًا من الأمهات اللاتي فقدن أبناءهن وكان إلحاح الذكر مضرًّا بهن، ينسين هذه الواقعة حتى لتمحى من صفحة الذهن محوًا تامًّا، فتقول: لم يكن لي ولد، ولا تعرف اسمه وتنسى كل شيء عنه.. وهذا هو النسيان التلقائي الذي يصدر من المرء احترازًا من ضرر التذكر. إلا أن هذا النسيان المفاجئ غير المألوف وغير الطبيعي، إن هو إلا ستار يخفي الهم ولا يزيله، فتظل الحادثة مختفية في أعماق النفس تحاول أن تظهر، ولا بد أن تظهر في أشكال شتى، كفلتات اللسان، والإشارات والإيماءات والأحلام بوجه خاص. ويعتمد فرويد -كما تعرف- على تفسير الفلتات والرموز والإشارات والأحلام في معرفة هذه الهموم التي يخفيها صاحبها عن نفسه ويتركها في الأعماق. روى هذا العالم قصة فتاة نسيت خاتم الخطبة على حوض الحمام بعد

أن غسلت يديها، ولم تتذكر أين وضعته، وفسر ذلك بأن الخاتم رمز الزواج. وأن هذه الفتاة لا تحب خطيبها وتريد أن تنساه.

ولذلك كان علاج الهموم بضغطها، أو باصطلاح علماء النفس «بكبتها»، علاجًا غير ناجع؛ لأنه يخفي الداء فلا يلبث أن يظهر في صورة أخرى قد تنتهي إلى مرض نفساني خطير.

ومن الناس من يلجأ إلى الانغماس في المخدرات وشرب الخمور يلتمس فيها مهربًا من الهموم، وينسى فيها ما يحس من آلام نفسانية. وليس هذا بالعلاج الصحيح؛ لأنه يخرج من علة إلى علة أعظم وأخطر.

وعندي أن الانغماس في المخدرات راجع إلى محاولة النسيان ودفن الهموم، ولذلك كان علاج المدمنين يتطلب تحليل نفسياتهم لمعرفة ذلك الذي يريدون إخفاءه.

أما العلاج الصحيح فهو -فيما يختص بالعلل المادية- أن نحاول تخفيفها إن أمكن، فإن لم نستطع فلا حيلة لنا إلا أن نقبل الأمر الواقع، ثم نُعَوّضه بكمال النفس والانصراف إلى الجليل من الأمور، ولنا في كثير من عظماء الرجال القدوة. فهذا روزفلت لم يغب ذكره بَعْد عن الأذهان.. كان مشلولًا، ولكنه كان رئيسًا لأقوى دولة على ظهر الأرض، وكان يقابل رؤساء الدول كسيحًا يجلس على كرسيه، فلم يجد ذلك عيبًا يسيء إلى نفسه.

أما العلة العاطفية فينبغي أن يعلم كل ذي علاقة بغيره كالمحب بحبيبته أو الزوج بزوجته، أو الأب بابنه، أن الموت حق على كل إنسان

وإني لصاحب ولد ولكني أقول لنفسي قد يموت أحد أبنائي يومًا، فإذا وقعت الواقعة حزنت لها الحزن اليسير، ولم تفعل في نفسي ذلك الأثر الذي تفعله في نفوس أولئك الذين يعتقدون أن أبناءهم مخلدون.

أما العلة الاجتماعية، فإن كانت خلقية فينبغي على المرء أن يتجنب كل ما يشين؛ حتى لا يقع في المحظور ويسيء إلى نفسه. والوقاية خير من العلاج.

أما إذا كانت العلة تمس المنزلة الاجتماعية، فينبغي أن يواجه الإنسان الحقائق وأن يحلها حلًّا حاسمًا يتلاءم مع الظروف المحيطة بها. فقد رأينا أغنياء فقدوا أموالهم، وملوكًا نزلوا عن عروشهم، ومع هذا فلم يذهب ذلك بصوابهم، وإنما قبلوا الأوضاع الجديدة، وساروا في موكب الحياة، وقد رتبوا أنفسهم على نظام جديد يتفق مع هذه الظروف. وهم في ذلك على حق؛ إذ لا خير في التلفُّت إلى الماضي وفي النظر إليه، والكلام في الماضي عبث، ولك الساعة التي أنت فيها.

ومن وسائل العلاج السفر وتغيير المكان الذي يذكِّر المرء على الدوام بما وقع له من أحداث، ومرجع ذلك إلى قانون معروف في علم النفس باسم ترابط المعاني، فرؤية السرير الذي كان ينام عليه الابن يذكِّر الأم بابنها فتثور في نفسها الذكرى. ووجود الموظف في الوظيفة التي تخطته فيها الترقية تذكِّره بهذا البلاء فيسعى إلى النقل أو يستقيل. وفي السفر بُعد عن مكان الذكريات، وتجديد للمناظر، واتصال بالناس، وتغيير للحياة، واطلاع على أحوال الجماعات.

الانشراح

الناس فريقان منشرح ومكتئب، أو منبسط ومنقبض. فالفريق الأول يميل إلى الاجتماع بالناس ومساعدتهم وإدخال السرور على قلوبهم، وتمضية وقت سعيد ينسون فيه هموم الحياة. أما الصنف الثاني من الذين تعلو وجوههم الكآبة، فإنهم يميلون إلى العزلة وينفرون من المجتمع.

ونحن نجنح إلى الإقبال على أولئك الذين تشيع فيهم السعادة؛ لأنها تنعكس من نفوسهم علينا، كأنها نور يضيء أرجاء المكان. ثم نطمئن إلى هذا الصنف من الناس الذين تعلو وجوههم ابتسامة تدل عل امتلاء نفوسهم بالبِشْر والبهجة والانشراح. والأطفال أصدق فطرة من الكبار؛ فهم يتصرفون بفيض من النفس البعيدة عن التعلُّم والحضارة وكأن سلوكهم بالبصيرة لا بالبصر، والإلهام لا بالفكر. فإذا شاهدنا الطفل الحديث الولادة الذي لا تزيد سنُّه على بضعة شهور، وكان نظيفًا قد رضع حتى شبع، نرى البِشْر يعلو وجهه، والابتسامة تنطبع على شفته كأنه

ملاك طاهر. هذه هي الفطرة الإنسانية الصافية، أو النفس التي لم تفسدها المدنية والحضارة. فإذا أقبلت على هذا الطفل واتصلت بنفسه شعرت بالبهجة تسري إلى نفسك كأنها تنتقل منه إليك. وكلما كانت الصلة بالطفل أشد كان التأثير أقوى. ولذلك كانت الأم أكثر الناس تأثرًا بحالة ابنها، سعادتها في سعادته. وكذلك ينعكس هذا الشعور في نفسك إلى نفس الطفل، فإذا ابتسمت له ابتسم كذلك. وهو يفعل ذلك عن طريق المحاكاة والتقليد؛ لأن الملامح الظاهرة تؤدي إلى آثار باطنة، فانطباع الابتسامة على الوجه يؤدي إلى انشراح القلب، وكذلك انشراح النفس يؤدي إلى انبساط الأسارير. وقد اختلف العلماء أيهما علة في صاحبه، هل المظاهر الجسمية هي التي تؤدي إلى الأحوال النفسية، أو أن الأحوال النفسية هي التي تنتهي إلى المظاهر الجسمية. ويعنينا أن نذكر هذه الصلة بين الجسم والنفس، وأن الارتباط بينهما وثيق. فإذا علمت ذلك، فينبغي أن تظهر دائمًا بمظهر الانشراح والسرور، فإن ذلك كفيل أن يدخل السرور على القلب، ولذلك قيل في الأمثال «اضحك يضحك لك العالم».

ومن الناس من يعيش في هذه الدنيا مرحًا طروبًا لا يحمل همًّا، ولا يبدو عليه اغتمام، ولا يلقي عبء الحياة على غيره من الناس. يتمثلون بما جاء في الأثر «ما فات مات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها»، ولا ريب في أن مثل هؤلاء القوم إذا حلوا في مجتمع أشاعوا فيه جوًّا من البهجة والانشراح، وجعلوا للحياة معنى وصبغوا عليها جمالًا.

إننا نحس مع هؤلاء المنشرحين من طريقة سلوكهم وحديثهم واهتمامهم بأمورنا والسؤال عن أحوالنا ومد يد المعونة إلينا، بل من

طريقة إشاراتهم، ومظهر ملابسهم، نحس مع هذا كله، أنهم بلغوا السعادة التامة، والسعادة هي مطلب الإنسانية من قديم الزمان.

وليس من الضروري أن يكون الإنسان سعيدًا إذا ضحك أو ابتسم؛ فهناك ضحك كالبكاء، وابتسامة كلها تكلُّف وتصنُّع، حتى لقد أطلقوا عليها الابتسامة الصفراء؛ لأنها تدل على الحقد والحسد. حدثنا الروائي دوستويفسكي أن المرء ليستطيع أن يعلم أخلاق صاحبه من ضحكه أكثر مما يستطيع ذلك علماء النفس في تحليلهم. والضحك كما يقرب بين الناس؛ لأنه يشيع هذا الجو من السعادة والانشراح، قد يكون سببًا في الإفساد بينهم إذا اشتمّ المرء من الضحك السخرية والاستهزاء.

ومن الناس من يتشاءم من كثرة الضحك؛ ولذلك يقول العامة في أمثالهم إذا كثر الضحك بينهم على شيء من الأشياء: «اللهم اجعله خيرًا»، وهذا مجرد اعتقاد ناشئ عن الوهم، كالذين يتشاءمون من العدد (١٣)، وقد يكون لذلك تفسير مفهوم إذا علمنا أن الأمور نسبية. فاشتداد الضحك الدال على شدة البهجة والانشراح يرفع الإنسان إلى حالة يصعب الارتفاع إلى مثلها، فإذا عاد إلى العمل العادي أحس بالفارق بين هموم العمل وخفة العبث.

لذلك نصح القدماء ألا يمعن الإنسان في الضحك؛ لأنه يدل على الخفة والطيش، ويبعد المرء عن الجد والوقار. أما المحدثون في ألمانيا الهتلرية قبل أن تنهزم، وفي أمريكا حيث تحمل مشعل الحضارة الحديثة، فإنهم ينصحون بغير ذلك.. ينصحون بالاستمتاع

بالحياة إلى أقصى حد، ما دام الإنسان على قيد الحياة. لماذا نعكر صفو أنفسنا، ونحمِّل أنفسنا الهموم في غير طائل. وقد ذهبت هذه الدول الحديثة إلى نظرية ترمي إلى إدخال البهجة والانشراح على النفوس هي الاهتمام بالرياضة البدنية في الهواء الطلق. وقد رأيت في ألمانيا قبل الحرب ما يُسمَّى بشباب هتلر يجتمعون في معسكرات للعمل في الأرض والتدريب العسكري، فكانت من أسعد الجماعات. وقد عرف العرب قيمة الرياضة البدنية في جلب السعادة إلى النفوس، فجاء في وصية عمر بن الخطاب «علّموا أولادكم الرياضة والسباحة».

وأنا أذهب إلى نظرية جديدة في سبب الانشراح مستمدة من مشاهدة الأطفال، فقد رأيت أن الطفل يكون سعيدًا منشرح الصدر تعلو الابتسامة وجهه، إذا كان قد شبع من الرضاعة، وليس في جسمه ما يؤلمه، ومعدته سليمة لا يعتريه «مغص»، فإذا رأيت الطفل مكتئبًا فابحث في معدته. عندئذ نعلم أن سلامة الجسم شرط جوهري في سلامة النفس والشعور بالانشراح والانبساط، وعلى وجه الخصوص المعدة، والمرض بالمعدة والأمعاء مما يؤدي إلى فساد المزاج. ويروي لنا التاريخ كثيرًا من الأمراء والخلفاء والملوك كانوا ممعودين، فانعكس ذلك على مزاجهم وأدى إلى بؤسهم. وفي الأمثال «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»، ولعل الصوم -وهو الامتناع عن الطعام- من أعظم الفوائد في علاج المعدة، ومن ثم في شعور الصائم بالراحة النفسية التي ينسبها إلى رضى الله. فإذا علمت ذلك، فانظر في معدتك ولا تكثر من الطعام، فإن انتظام الجسم يقود إلى راحة النفس.

ومما يؤيد ما نذهب إليه من أن صحة الأبدان هي الأصل في شعور المرء بالبهجة والانشراح، هو أن الشباب أكثر شعورًا بهذه الحالة من الشيوخ، مع أن الهموم التي تعرض لهم واحدة، وإنما الشباب أشد لها احتمالًا لا يُلقي إليها بالًا، ويمضي في طريقه راضيًا هانئًا، وله من فيض شبابه ووفرة حيويته ما يدفعه إلى العمل والإقبال عليه.

وكلما خلصت النفس من هذه الهموم صفت وزال الكدر والغيوم، وأشاعت في صاحبها بريقًا من السعادة تضيء أرجاء المكان ويستريح إليها الإنسان، وتقبل عليه الناس وتجد في حضرته متعة ولذة. وكلما كان الإنسان أكثر بِشرًا، اتسعت حلقة معارفه. ولو نظرت إلى عظماء الرجال وقادة الجماعات لرأيت فيهم هذا اللون النفساني الذي نعبر عنه بانشراح الصدر وانبساط النفس، ولذلك يكثر أشياعهم ويتعدد أنصارهم.

وممن كانت فيه هذه الصفة أستاذي الشيخ مصطفى عبد الرازق -رحمه الله- فما زرته يومًا إلا كان دائم الابتسام عن ارتياح وانشراح، والله أعلم بما تنطوي عليه القلوب، وهو الذي يعلم ما تخفي الصدور، ولكننا لا نعرف إلا الظاهر، وما يبدو للعيان. لذلك كان من الخير أن تطوي على نفسك الآلام، ولا تظهرها لأحد تشكو له الزمان؛ لأن الشكوى دليل على الضعف، وكشف الهموم صغار وعجز، فإذا بان منك الضعف، نزل مقدارك في أعين الناس؛ لأنهم يقدرون القوي ويحترمون صاحب السلطان، والسلطان على النفس هو السلم الذي نرقى منه إلى السيطرة على الجماعة.

حقًّا لقد أصبح طابع العصر التمتع بالحياة في بِشْر، ولكن الحروب الدامية الحديثة وما صحبها من فتك بالأرواح ودمار واسع النطاق، كل ذلك أدى إلى ضيق وكرب في الأمم المنهزمة على وجه الخصوص، فلا نظن أن أهلها يحسون بانبساط النفس وأعينهم تقع كل يوم على مأساة. ومع ذلك فقد ابتكرت الدول حديثًا دواء نفسيًّا للتخفيف من آلام الحروب وسمته الترفيه، أي إدخال السرور على النفس. وقد رأينا الجند يعربدون ويصيحون وينغمسون في الخمر والرقص والصياح، وهذه كلها حيل تلجأ إليها النفس الحزينة لتغطية ما تحس به من ألم. وقديمًا قال الشاعر: «كالطير يرقص مذبوحًا من الألم»، فكثرة الضحك والصياح دليل على علة باطنة، وليس دليلًا على راحة صحيحة.

نحن في الواقع ننسى أنفسنا، ونعود كما كنا أطفالًا نتصرف كما يتصرف الطفل الصغير الذي لا يحمل همًّا، وينغمس في اللهو واللعب. وهذا هو السر في أن كثيرًا من الرجال -والمسؤولين منهم على وجه الخصوص- لا يتركون لأنفسهم العنان في التظاهر بالانشراح، حتى لا يُقال عنهم إنهم أطفال، فيفقدوا المنزلة التي لهم على الناس. ومن هنا يحيا كثير من الناس حياتين، حياة رسمية فيها جد ووقار، وحياة خاصة يعوضون فيها عن ذلك الجد الذي يضيقون به. وهذا نفاق اجتماعي يزيد إذا تأخرت الدولة وقلت فيها الحرية. والأفضل أن يُعَوِّد المرء نفسه على أسلوب واحد لا ظاهر فيه ولا باطن. والأمر راجع إلى نظرة الإنسان للحياة، فإن كنت متفائلًا شعرت بالسعادة والانشراح.

جوانح ونوازع

- الطمـــوح
- الغـــــرور
- الحســـــد
- المـــــال
- البخـــــل

الطموح

ينشأ كل إنسان وفي نفسه نزعة طبيعية إلى الطموح والسمو والتفوق على الأقران والإخوان والخلان.

ذلك أن المجتمع الذي نعيش فيه درجات وطبقات بعضها أعلى من بعض، ولذة المرء في ارتقاء درجات المجتمع؛ حتى يحس أنه سيد لا مسود، رئيس لا مرؤوس، آمر لا مأمور.

وقد صوّر الشاعر القديم هذا المعنى الذي فطر الإنسان عليه فقال:

حبُّ الرياسَةِ داءٌ لا دواء لهُ وقلّما تجدُ الراضينَ بالقسَـــم

وقال غيره:

هلاك الناس مذ كانـــــوا إلى أن تأتي الساعـــــــة

بحب الأمـــــر والنهـــي وحب السمع والطاعـــــة

ونحن نجد هذه النزعة في مملكة الحيوانات، ونستطيع أن نشاهدها في الدواجن التي نقتنيها في البيوت كالدجاج والديكة التي تنتفخ وتنتفخ وتعتدي على غيرها احتفاظًا بمنزلتها ومركزها.

والأمر كذلك في الإنسان، إلا أنه يختلف في الذكور عنه في الإناث، ويختلف باختلاف مطالب الحضارة والمدنية والحياة الاجتماعية.

فالطموح في الرجال يظهر في شق الطريق إلى المنزلة الاجتماعية، وفي الحصول على المال. أما المرأة فإنها تطمح في بيت عظيم، وفي ملابس ثمينة وحُلي غالية تدل على ارتفاع قدرها. فهذا مارك أنطوان كان يطمع في مُلك عريض يتربع فيه على عرش روما والإسكندرية، وتصبح الدنيا في قبضة يده، وكان سبيله إلى ذلك الشجاعة والحرب والجيش والأسطول. وهذه كليوباترا -مع أنها سليلة الملك وربة مصر- تتزين وتتعطر وتحيط نفسها بمظاهر الإناث.

والطموح في الرجال أنواع وأشكال، وهذا راجع إلى اختلاف المجتمعات. أعرف شابًّا من أسرة عريقة، يملك أبوه أرضًا واسعة، ويشتغل عنده عدد كبير من الفلاحين، وكان صاحبنا كلما نزل إلى الحقل أو مرّ بالطريق الزراعية وهو راكب عربته وقف له الفلاحون إجلالًا، وقدموا له التحية احترامًا، وهو يرد تحيتهم بإشارة من يده كأنه ملك في رعيته. فلما قدم إلى العاصمة ليلتحق بالجامعة، والعاصمة مدينة واسعة مزدحمة بالناس والحركة، وجد نفسه مغمورًا في هذا البحر من الناس، لا يقف له أحد يحييه، وقد يجلس في الترام إلى جانب الفلاح الذي يأنف أن يجلس إلى جانبه في الريف. ولم تعجبه هذه الأحوال، فلم يكد يفرغ من دراسته في الجامعة حتى عاد إلى الريف؛ لأنه يحس فيه أنه سيد عظيم.

وهناك من الناس من يطمح في أعلى الدرجات الاجتماعية. وأظنك توافقني على أن كرسي الوزارة أسمى هذه الدرجات، لذلك كانت أطماع الشباب وأوهامهم تطلب هذا المركز العظيم، فكيف السبيل؟ رأى الشباب أن أغلب الذين ارتقوا الوزارة كانوا من المحامين، فأقبل كثير منهم على دراسة القانون، وكل واحد منهم يحمل في نفسه هذا الأمل البرَّاق.

ولكن بعض الشباب يكون أكثر تواضعًا، فيرى أن بريق الوزارة مطلب بعيد المنال، فيقنع أن يكون كبير الأطباء أو رئيس التجار أو كبير المهندسين وما إلى ذلك، فهو يسعى إلى الرئاسة في فن خاص. ولا يُعاب على الإنسان أن يكون طموحًا يسلك سبيل الارتقاء، ولكن أغلب الناس لا يرضون بالواقع، ولا يضعون أنفسهم الموضع الصحيح، ولا يسلكون الطريق السوي المستقيم لبلوغ المنزلة الرفيعة، فيبتعدون عن حقائق الأشياء ويهيمون في الخيال، وهذا علة المرض.

وإليك قصة حقيقية تصور كيف يؤدي الطموح بصاحبه إلى الجنون.

كان اسمه المنزلاوي، ويعرفه كثير من الأدباء المخضرمين من الذين كانوا يجلسون في حي سيدنا الحسين في أحد المقاهي. وكان المنزلاوي في أول أمره خادمًا في عيادة طبيب أسنان، ثم صور له الوهم أن يكون طبيبًا، فأطلق على نفسه الدكتور المنزلاوي، مع أنه أميّ لا يعرف القراءة والكتابة، وكان يُعجب بحديث هذه الجماعة

الأدبية فحفظ عنهم بعض العبارات، وهيأ له بعض هؤلاء القوم أنه أديب وخطيب وسياسي وصاحب رأي في الأمور التي تشغل الأذهان، وكانوا يقدمونه في الحديث ويسألونه رأيه في شيء من الجد، حتى اعتقد في نفسه أنه حقًّا زعيم وسياسي.

وفي يوم من الأيام خرج الدكتور المنزلاوي من بيته، وكان الوقت صيفًا، وقد خلع أغلب ملابسه، وارتقى كرسيًّا في المقهي، وأخذ يخطب في الناس بما يدور في ذهنه من هذيان. ولم يصبر الجالسون على هذيانه وطلبوا منه السكوت، فأبى وشتمهم، ثم ضربهم، فقبضوا عليه، وذهب إلى مستشفى المجاذيب إلى أن تُوفِّي.

والجنون هو شدة الابتعاد عن واقع الحياة. والطموح هو الدافع إلى الانفصال عن الواقع وعدم الرضى عنه. ومن يدري كم في هذا العالم من مجانين، أو على حافة الجنون ولكن لا يصدر عنهم شر، ولذلك لا يبعثون بهم إلى البيمارستانات.

وليس للطموح حد؛ فالنفس البشرية لا تعرف الحدود.

فإذا كان بعض الناس يطمع في الوزارة أو المُلك والسلطان، فإن بعض الناس يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيعتقد في نفسه الولاية أو النبوة أو الألوهية.. ألم يقل فرعون في قديم الزمان: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

[النازعات: ٢٤].

وفي الشرق كثير من المجاذيب يقولون عن أنفسهم إنهم المهدي المنتظر، وإنهم سيدنا عيسى نزل إلى الأرض بعد أن رُفع إلى السماء.

والغريب أنهم يجدون من يصدقهم، ويقبِّل أيديهم، ويعتقد فيهم الولاية والبركة، وهم أنفسهم يجدون لذة كبيرة في هذه الزعامة الدينية؛ لأنها تشبع في النفس نزعة السيطرة من أيسر سبيل. هذا في الواقع هو السر في أن كثيرًا من الناس يتجهون إلى المناصب الدينية وإلى التعليم.

وليس هناك فرق كبير بين رجل الدين والمعلم، فكلاهما يلقي مواعظه على الطلاب الذين يؤمنون بكلامهما. ولذة المعلم أو رجل الدين هي السيطرة على جماعة من الأتباع أو التلاميذ، الذين ينقادون إلى رأي المعلم في استسلام وخضوع.

وهناك طائفة أخرى تحقق طموحها عن طريق المال لا عن طريق المنزلة والمراكز، وهؤلاء يرون أن المال قوة عظيمة بها نحصل على كل ما نريد في الحياة؛ إذ نشتري الطعام والملابس، ونقتني الدور والقصور والعربات، بل نستطيع بالمال أن نشتري المراكز نفسها. ولا يزال الشرق يدين بالألقاب، وهي تُشترى لمن يدفع ثمنها. وكثير من الأغنياء الذين وصلوا إلى الثروة عن طريق التجارة أو الزراعة، وكانوا قبل ذلك من عباد الله الفقراء، يتبرعون ببضعة آلاف من الجنيهات لبناء مستشفى أو جامع أو مدرسة، فتمنحهم الدولة نظير ذلك لقب البكوية أو الباشوية. هؤلاء قوم ينزلون عن المال في سبيل الشهرة. ولكن غيرهم لا يؤمن بالألقاب، ولا يعتقد في المناصب الرسمية الاجتماعية، ولا يعبد المال وحده، ولذلك لا يسعى إلى لقب، ولا يطلب سلطانًا، وإنما يقتني العقار، بل يذهب إلى أكثر من ذلك، فيخفي ثروته ولا يستثمرها في أرض زراعية أو دور للسكنى، بل في أوراق مالية أو في جواهر ثمينة.

ولكن المال لا يُلبس ولا يُؤكل، وإنما هو السبيل إلى الحصول على الرغبات الدنيوية، تلك التي تحقق المنزلة الاجتماعية وترضي الطموح. وقد أصبحت المنزلة الاجتماعية، أو قُلْ إنها كانت وسوف تكون على الدوام في مظهر الحياة: بيت عظيم يشبه القصور، وعربات مطهمة ذات جياد أصيلة، أو سيارات فاخرة، وخدم وحشم وبذخ في استقبال الناس، وولائم تُنفق فيها الأموال بغير حساب.

هذا هو الهدف الأصلي الذي يرمي إليه من يطمح إلى المال، إنه يسعى إليه ويجمعه ويلح في جمعه ويكنزه لغرض واحد، هو الإنفاق منه على مباهجه ومسراته وتحقيق أطماعه وأغراضه. ولكن كثيرًا من الناس ينتهي أمرهم إلى نسيان الغرض الحقيقي من المال، وأنه سبيل إلى غاية، فإذا بهم يتمسكون بهذه الوسيلة ويتخذونها غاية في نفسها، ويجمعون المال من أجل المال، ويعيدون الثروة لذاتها. وهذا ضرب من ضروب الانحراف والشذوذ، ولله في خلقه شؤون.

وسواء أحققت طوحك في الحياة عن طريق منزلة اجتماعية أم عن طريق المال، فليس من الضروري أن تصل وتبلغ المرام، وعندئذ تلجأ إلى طريق آخر، هو طريق الأوهام والأحلام. ونظرية فرويد معروفة، ونحن نوافق عليها، هي أن الحُلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها في اليقظة، بل إن كثيرًا من الناس يتركون أنفسهم للخيالات وهم أيقاظ، وذلك ما نُسمِّيه بأحلام اليقظة أو شرود الذهن، فيتصورون أنهم أصبحوا ملوكًا ووزراء وحكامًا، وأنهم يسكنون القصور ويتمتعون بما يشتهون. وهذا كله دليل العجز والقصور.

وقد يذهب العجز بالإنسان إلى حد المرض، نعني المرض الوهمي، أو ادعاء المرض، حتى يبرر فشله في آماله التي تحطمت وتمددت وذهبت أدراج الرياح، فإذا به يرقد، ولا يستطيع القيام من السرير أو المشي أو الكلام أو القيام بعمل من الأعمال.

يحكي أدلر العالم النفساني قصة ذلك الشاب الذي بلغ من العمر الخامسة والعشرين، وكان عليه أن يتقدم إلى امتحان الليسانس، ويبدو أن شيئًا من الخوف دخل إلى قلبه، فأوحى إلى نفسه أنه مريض، ورقد فعلًا، ولم يدخل الامتحان، وبذلك ضاعت عليه الفرصة في النجاح.

ونحن إذا نظرنا إلى الطبيعة البشرية نستطلع أسرار النفس لرأينا عجبًا.. رأينا أن كثيرًا من العجزة أصحاء، وإنما يدَّعون المرض وهم لا يشعرون. ولذلك كثرت الأمراض النفسية في العصر الحاضر، أو قل إنها كانت موجودة ما دام البشر بهذه الفطرة الطامحة، وما دام تحقيق الآمال متوقفًا على ظروف خارجية ليس في وسع المرء تذليلها.

ولكن الجديد في العصر الحاضر هو تقدم العلوم النفسانية التي تكشف الطبيعة الإنسانية، وتعلم السر في الصحة والمرض والواقع والخيال.

فجدير بنا أن نفهم الدنيا على حقيقتها، وألَّا نسرف في الطموح فنهوي، أو ننصرف إلى الأوهام ونعيش في دنيا الأحلام فتضيع الفرصة. ولا يلومن أحد إلا نفسه.

الغرور

حدَّثَ ستاندال الروائي الفرنسي المشهور في كتابه عن الحب، فقال إنه على أربعة أنواع: الحب الأفلاطوني، وحب الذوق، والحب الجنسي، وأخيرًا حب الغرور. ويعنينا أن ننظر في هذا النوع الأخير الذي تحدث عنه ستاندال، فهو يصفه بقوله إنه ذلك الضرب من الحب السائد في فرنسا في عصره، أي في القرن الماضي، حيث ينزع أغلب الرجال إلى اتخاذ امرأة عصرية خليلة، كما يحوز المرء حصانًا أو كلبًا، فهو شيء مكمل للترف ليرضي نفسه، ويزهو على الناس ويفعل كما يفعلون.

وكما أن كل إنسان طامح، كذلك كل إنسان مغرور؛ لأن الطموح والغرور متصلان بحب التفوق والرئاسة، وحب الرئاسة داء لا دواء له، وقل ما يجد الراضين بالقسم، كما قال الشاعر القديم. والفرق بين الطموح والغرور أو الزهو والخيلاء، أن الطموح نزوع النفس إلى شيء آخر كالمجد أو المال.. والغرور تعلق النفس بالنفس أو حب الذات؛ لأنها هي التي تعمل وتخلق. وكل عامل يطلب الثناء على عمله؛ لأن

لذة الحياة في الخلق والابتكار والإبداع، وأنت لا ترضى بحكم نفسك على نفسك، بل تطلب حكم الناس عليك، وماذا يظن الناس فيك.

كل منا إذن فيه من الغرور نصيب؛ لأن الطبيعة التي رُكِّبت فينا جعلتنا نحب أنفسنا. إلا أن هذا الغرور أو الزهو يبدو في ألوان مختلفات، قد يكون معتدلًا وقد يكون متطرفًا. والخطر كل الخطر في الإسراف في الغرور، والتطرف في الزهو، والإفراط في العجب والخيلاء.

أول هذه الآثار عناية المرء بمظاهر الأشياء دون الحقائق واللباب. ولذلك ينصرف المزهو بنفسه إلى أعمال الزينة، فيتأنق في ملبسه أناقة تخرجه عن حد الاعتدال، وزهو النساء في هذه الناحية أشد. وحب الغرور الذي حدثنا عنه ستاندال هو من هذا القبيل؛ لأن الرجل يتخذ حبيبته لا للحاجة ولا للحب الصحيح، بل للزينة، حتى يقال إنه قد اتخذ صاحبة كغيره من أهل طبقته. وهذه الظاهرة أكثر شيوعًا في الجماعات التي تبلغ درجة عظيمة من الحضارة، ثم تتأخر كما هو الحال في الشرق في الوقت الحاضر. فنحن لا نزال نتمسك بالقشور والمظاهر تشبهًا بأهل الكمال. وهذه الألقاب والولائم والملابس والتحيات والسلامات، كل هذه من مظاهر الزهو، والشعور بالنقص. وكلما هم شعب بالنهوض ثار على هذه المظاهر الفارغة، كما فعلت تركيا على يد مصطفى كمال، حتى يتفرغ الشعب للجوهر وينصرف عن القشور.

ونحن نرى أن الشرق آخذ في هذا الطريق، وهو دليل النهوض الحقيقي.

ومن آثار الغرور انعطاف المرء على نفسه يفكر فيها، كأن الدنيا لا يعيش فيها إلا هو، ولذلك يطلب رأي الناس فيه، ويسر للمديح.

ومن آثاره أيضًا عدم إدراك العلاقات بين الناس على حقيقتها، فيغفل عن الواجبات. فهذا صديقك اليوم، ثم أصبح في الغد صاحب مركز ممتاز، قُل إنه أصبح وزيرًا، فهل تطلب منه أن يكون معك كما كان بالأمس؟ ألَّا تدرك أن عليه مسؤوليات وواجبات؟ فإذا ذهبت إليه تطرق بابه ووجدته مشغولًا بشؤون الوزارة، ولم يستطع أن يستقبلك، غضبت واتهمته بالعقوق. وكان ينبغي أن تتهم نفسك بجهل طبائع الأشياء، ونسيان الواجبات، وعدم إدراك حقوق الناس على الوجه الصحيح.

ولكنه الغرور الذي يجعل الإنسان يعتقد في نفسه أنه أعلى الناس قدرًا، وأرفعهم منزلة، فينسى قيمة نفسه الحقة.

وإذا كان هناك فريق من الناس يُرضي ما في نفسه من زهو وغرور وخيلاء، بالزينة والملبس الأنيق والترتيب الدقيق، فهناك فريق آخر يذهب إلى العكس من ذلك، فيهمل نفسه إهمالًا شديدًا، حتى ليلبس الملابس المرقعة والأسمال البالية. وليس هذا دليل التواضع وقتل داء الغرور، ولكنها طريقة يلجأ إليها بعض الناس بغير شعور إلى إرضاء غرورهم من هذا السبيل.

يُحكى في ذلك أن سقراط الفيلسوف رأى شابًّا يرتقي المنبر في أثواب بالية ممزقة، فقال له: «أيها الشاب الأثيني، إن غرورك ليظهر من

خلال كل خرق من خروق ثوبك».

ونحن نرى كثيرًا من الذين يزعمون أنفسهم من أهل الفن يتركون شعر رأسهم أشعث وملابسهم متهدلة، حتى يقال عنهم إنهم بلغوا من الفن منزلة رفيعة.

والزهو أو الغرور يبدو في الأطفال بأشكال مختلفة؛ فالطفل يحب أن يؤكد وجود نفسه، وأن يلفت النظر إليه بالصياح واللعب في الأشياء التي تحدث أصواتًا مدوية، كأنه يقول: «نحن هنا»، وإذا رأى غيره من الأطفال أراد إخضاعهم بالقوة والعنف، فلا ينفك يضربهم، بل كثيرًا ما يضرب الطفل الحيوان ويعذبه ليؤكد وجود نفسه، وكثيرًا ما تصحب هذه العادات التي تتأصل في سن الطفولة الناس حتى يبلغوا مبلغ الرجولة. ولكن المجتمع له تقاليد وآداب يجب اتباعها، منها حلاوة الإنسان، وحسن استقبال الصديق، والود والإخلاص والوفاء، مما يبدو في السؤال عن الأحوال والاهتمام بشؤون الغير. ومع ذلك فهذا كله طلاء ظاهر أو نفاق اجتماعي يخفي وراءه حقيقة الغرور.

ذلك أن من شأن المغرورين بأنفسهم أن يضعوا ستارًا لا يستشف الناس منه حقيقة أمرهم.

لذلك لا يجب أن ننخدع في مظاهر الود والصداقة والرغبة الطيبة التي يبديها بعض الناس، فقد يكون كل ذلك خداعًا، وقد نعجب عندما تظهر نفسه على حقيقتها، وما فيها من شر وعدوان.

وعندئذ نعتقد أنه يحمل نفسين، أو أنه مركب من طبيعتين،

إحداهما لينة خيرة سهلة، والأخرى شريرة تميل إلى العدوان. الحقيقة أن الإنسان لا يحمل بين جنبيه إلا نفسًا واحدة، ولكنها متعددة الجوانب، أو لها ظاهر وباطن. والحياة الاجتماعية تضفي على النفوس مظاهر تخفي حقيقتها. ونحن هنا نحاول أن نكشف عن أسرار النفس، وننفذ منها إلى الأغوار العميقة والبواطن الصحيحة. إذَنْ فاعلم أن النفس واحدة، ولكنها تحب الخداع، فتلتوي -إذا لم تستطع تحقيق أغراضها- عن الطريق المستقيم.

ومن مظاهر الزهو التمسك بالحسب والنسب، مع أننا نعيش في عصر الديموقراطية. ومع ذلك نسمع بين حين وآخر عن نساء تزوجن من أمير أو بارون أو كونت، لا لسبب إلا لاكتساب اللقب إرضاء لأنفسهن المملوءة بالزهو. وهذا كثير الحصول في أمريكا، وهي بلاد الأعمال بوجه خاص. وكثير من الأسر التي أخنى عليها الدهر في أوروبا أو في الشرق تتمسك بحسبها وتقاليدها ولا تزال تعيش على الماضي. وكان التمسك بالحسب في الزمن القديم شديدًا، وكثيرًا ما التمس العظماء من الرجال الانتساب إلى الرسول عليه السلام ليزدادوا شرفًا. ويُروى في ذلك أن المعز لدين الله الفاطمي بعد أن فتح مصر وبنى القاهرة المعزية، ورأى أن الشك قد سرى بين الناس عن حقيقة نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء، جمع مجلسًا يثبت فيه هذا النسب، وأخرج سيفه من غمده باليمين، ونثر الذهب بالشمال، وقال: هذا حسبي وهذا نسبي. فإن صحت هذه القصة، كانت دليلًا على استيلاء الزهو على نفس المعز حتى ليحتاج إلى النسب إلى بيت الرسول، مع أنه وصل إلى مُلك شمال أفريقيا كلها.

ونحن نرى أن التمسك بالنسب أثر من آثار التربية منذ الصغر، فالآباء يُعلِّمون أبناءهم الترفُّع والتمسُّك بالأصل إذا كانت الأسرة ذات منزلة اجتماعية مرتفعة عن غيرها، فينشأ الطفل على حب الزهو منذ الطفولة، وتصحبه هذه النزعة حتى الشباب والرجولة.

الواقع أننا في كثير من تصرفاتنا نعود إلى عهد الطفولة، ونتأثر بالطريقة التي طبَّعنا عليها الآباء، فإن لم يكن الأب ذا مال أو منزلة، أوْحى إلى أبنائه أن يتطلعوا إلى المراكز السامية، بل كثيرًا ما يتخلى الآباء عن أموالهم في سبيل راحة أبنائهم؛ حتى يحتلوا المكانة التي لم يستطيعوا هم تحقيقها. ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فيشب الطفل وفي نفسه حب الزهو والغرور، ولا يستطيع إدراك المنزلة الحقيقية التي يصبو إليها. وعندئذ تحدث أحد أمور ثلاثة: الأول العزلة والانطواء على النفس والابتعاد عن المجتمع والسخط عليه، مع أن تحقيق المناصب الكبرى لا يتم إلا بالنزول إلى الميدان الاجتماعي وعقد الصلات بالناس. وقد تبلغ العزلة بالمغرور حد الترهُّب والمعيشة في دير يغلق فيه أبوابه على نفسه فلا يرى أحدًا.

الأمر الثاني شكوى الزمان، وإنزال السخط على الدهر الذي لم يعمل على إرضاء هذا الساخط. ويبدو أننا نعيش في عصر الغرور؛ لأنك لا تسأل أحدًا إلا وجدته متبرمًا ساخطًا لا يعجبه ما هو فيه من مركز أو ما يحصل عليه من مال. وكان ينبغي على هؤلاء الساخطين أن يسألوا أنفسهم ماذا قدموا من عمل يستوجب وفرة المال أو تقدم المركز أو حسن التقدير. وإني لأعاني في داري من الخدم هذا الداء

-وأظن أن معظم الناس يعانون مثل ما أعاني- فهذه خادمة لا تعرف في تدبير المنزل شيئًا، وإذا كانت تعرف فإنها لا تريد أن تعمل، وإنما تريد أن تذهب إلى دور الخيالة وإلى الحدائق للنزهة والترويح، ثم تطلب أجرًا غاليًا، إلى جانب أنها تأكل وتشرب وتلبس وتنام من دون أجر في البيت. ولكنه غرور النفس الذي أخذ يعم سائر الناس، فيقدرون أنفسهم أكثر من حقيقتها بغير عمل جِدي يقومون به.

والأمر الثالث في إرضاء الغرور، نقد أعمال الناس بالحق والباطل والسخرية من آثارهم، وتوبيخ من تتصل به في عمل ولومه. والنقد مطلوب على كل حال؛ لأنه يدل على التمييز بين الحسن والقبيح، ولكن لا ينبغي أن يتصدى للنقد والتجريح إلا من كان عاليًا عارفًا.

وقد شاع في العصر الحاضر ظاهرة غريبة هي نقد السياسة والمجتمع من كل إنسان، مع أن قوانين الجماعات معقدة أشد التعقيد، حتى لقد عجز الفلاسفة عن بيانها وتفسيرها، وعجز سقراط الفيلسوف -على علو قدره- عن فهمها وإدراك لب المجتمع، وهو العدالة الإنسانية، فقال عند موته: «إني أعرف شيئًا واحدًا، وهو أني لا أعرف شيئًا»، فإذا كان هذا هو حال شيخ الفلاسفة من اعتراف بالعجز، فكيف يُسوِّغ أنصاف المتعلمين لأنفسهم أن يجترئوا على كل شيء بالنقد والتجريح كأنهم أوتوا من العلم النهاية، وبلغوا منه الغاية. ولكنها النفس التي طبعت على الزهو والغرور والخيلاء، وعلى أنها تعلم كل شيء، فلما لم تستطع عملًا إيجابيًّا مفيدًا، اتجهت هذه

الوجهة السلمية الهدامة، والهدم أيسر من البناء، والنقد والتجريح أيسر من الخلق والابتكار، وهذا كله من آثار الغرور.

فاعرف هذا السر العميق، وأنزع من نفسك طلاء الزهو والخيلاء، وانصرف إلى العمل المثمر والتشييد والبناء.

* * *

الحسد

الحسد، أعوذ بالله من شره، فقد أمرنا الله تعالى في كتابه أن نستعيذ من شر الحسَّاد، فقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٥]، وأكبر الظن أن البشر ما داموا بشرًا رُكِّبت فيهم الطبائع الإنسانية، فسوف يدوم فيهم الحسد، كما يجري في نفوسهم الطمع والطموح والفتنة والغرور، والتسلط والعدوان، والسيطرة والنفوذ والسلطان.

ذلك أن طبيعة الإنسان متصلة بالنزوع إلى القوة والسيطرة والتفوق، بل هي طبيعة الحياة التي يتغلب فيها الأقوى، كما هو مُشاهد في الصراع بين الحيوانات فيتغلب القوي على الضعيف.

والفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل والشعور، وإدراك الزمان، ومعرفة الماضي والحاضر والمستقبل. أما الحيوان فطريقه إلى الغلبة هو القوة البدنية والصراع الوقتي، أما الإنسان فإنه يرسم الطريق الذي يسير فيه حتى يصل إلى المراتب العالية أو المال والنفوذ. وقد يكون ذلك بعد سنوات طويلة من الدرس والتحصيل، والدأب والكفاح والمغامرة والإقدام، حتى ينتهي إلى النصر والنجاح.

ولا تحسبن أنك وحدك الذي يسلك سبيل الرقي والتقدُّم حتى تبلغ ما تريد من قوة ونفوذ وسلطان، فإلى جانبك آلاف وآلاف يرتقون نفس السبيل، ويسلكون نفس الطريق وكلهم طامح إلى منزلة، طامع في مال، والطريق كما ذكرنا طويل، والمستقبل مجهول، فإذا بك ترى غيرك قد فاز بالمركز، أو سبق إلى الحصول على الثروة، أو وُفِّق في ابتكار أثر من الآثار العلمية والأدبية.

وهنا يدخل الحسد في قلوب المتخلفين. حكى الجاحظ في رسالة العداوة والحسد قال: «إني ربما ألَّفت الكتاب المحكم المتقن، في الدين والفقه والرسائل والسير والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة، وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم، بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاعته». فهذا كلام الجاحظ -وهو إمام الكُتَّاب في أهل عصره- وحسدهم له، ونيلهم من كتبه، فكان حسدهم أفضل دعاية وأعظم عامل على نشر رسائله. كما قال الشاعر:

وإِذا أرادَ اللّهُ نشرَ فضيلةٍ طويتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ

وهناك من الناس من يجزعون من الحسد فرقًا، ويؤمنون بتأثير الحسَّاد، وهو الذي يعبر عنه العامة «بالعين». ولقد شاع منذ الزمن القديم أنواع من التعاويذ تقي الحسد وتمنع شر العين، ولكل أمة تقاليدها في ذلك مما هو مشهور ومعروف.

ففي مصر تعوذ الفلاحات أبناءهن بفصوص من الزبرجد الأخضر

تُعلق على الجباه في مكان ظاهر. ويشتهر بعض الناس بنفاذ حسدهم، فما يرى أحدهم بقرة سمينة ويقع عليها نظره، حتى تمرض وتموت ولا ينفع فيها علاج.

وقد اختلف العلماء من قديم في تفسير هذا التأثير، أيفلح عن بعد أم لا يفلح؟ أتصيب العين أم لا تصيب؟ وكيف تصيب عين الحسود وليس هناك علة ظاهرة أو سبب مؤثر؟ قال المحققون: إن الحسد لا يثمر إلا إذا أقدم الحاسد على عمل إيجابي يضر بالمحسود ويؤذيه، فيمشي بالوقيعة بينه وبين الناس، أو يطلق فيه لسانه بالنقد أو التقريع وتشويه السمعة، أو يعتدي عليه بالذات أو بالواسطة. أما التأثير عن بعد بغير واسطة، فقد أنكر ذلك كثير من العلماء.

ومهما يكن من شيء، فالأفضل لنا أن نتقي شر الحسد والحاسدين. ولما كان الحاسد لا يحسد من هو أقل منه منزلة؛ لأن السيد لا يحسد الخادم، والغني لا يحسد الفقير، بل العكس هو الذي يحصل، فالضعيف هو الذي يحسد القوي، فينبغي على صاحب الأمر إذا تربع على عرش المجتمع، وأحس بسلطان على فئة من الناس أن يحسن معاملتهم، وأن يخفي بأسه وقوته، ويشعرهم بالأُخوة، فلا يجرح شعورهم، وهذا هو الطريق إلى إيقاف الحسد وصدِّه.

واعلم أن الناس تميل دائمًا إلى معارضة صاحب السلطة، وهذا قانون طبيعي لا سبيل إلى دفعه؛ لذلك كانت مهمة الآمر أشق من مهمة المأمورين، فالخدم يخرجون عن طاعة أسيادهم، والطلبة يثورون

على أساتذتهم، والعمال على صاحب العمل؛ لأن السيد فرد يواجه الجماعة، وهؤلاء يحسدونه لمنزلته. فإذا أضاف إلى ذلك الغطرسة والجفاء والتكبر، اشتعلت نار الحسد وانقلبت بُغضًا. ولا سبيل إلى رفع الحسد من القلوب إلا بالمساواة التامة بين جميع الأفراد، وهذا مطلب عسير التحقيق، على الرغم من أننا نعيش -كما يُقال- في عصر الحرية والمساواة والديموقراطية. كل ما وصلت إليه الإنسانية حتى اليوم هو تقريب المسافة بين الأفراد وفرض الضرائب على الأغنياء للإنفاق على الفقراء. بل لو اهتدى الإنسان إلى طريقة يستوي فيها الناس جميعًا من حيث الثروة، فيبقى بعد ذلك أن منهم حاكمًا ومحكومًا، وقويًّا وضعيفًا، وجميلًا وقبيحًا.. وأظن أن الجمال والقبح من المواهب الطبيعية التي لا حيلة للإنسان فيها.

وجميع الأديان والشرائع والأخلاق تنهى عن الحسد، ذلك أن الإنسانية لا تزال في فجرها، ولا تزال طبيعتها طبيعة الطفولة. ولكن المُشاهد أنه كلما زادت القيود الاجتماعية، زاد شعور الناس بالحسد، وكلما قلت القيود وشعر الفرد بالحرية، أمكنه أن ينفس عن شعوره، وأن يصل إلى أغراضه.

وكما يحسد الفردُ الفردَ يحسد الشعبُ الشعبَ. فهناك شعوب أقوى من شعوب، ودول أقوى من دول. وحسد الأمم يؤدي إلى الحروب الطاحنة، وليس ما نراه الآن من صراع قائم بين ألمانيا وروسيا وإنجلترا وأمريكا إلا نتيجة حسد ألمانيا للدول الأخرى. وقد انتهى بالحرب الدامية التي أدت إلى هزيمة الشعب الألماني. وسر الحروب

هو حسد الدول بعضها لبعضها الآخر.

فهل من سبيل إلى القضاء على الحسد حتى نقضي على الحروب بين الأمم، والمشاحنات بين الأفراد.

أما بالنسبة إلى الأفراد، فالسبيل إلى ذلك أن نكل إلى كل شخص عملًا يلائمه ويشعر فيه بقيمته ومسؤوليته، ويحس بمركزه وسلطانه، فترضى نفسه. أعندك في بيتك خادم... دعه يشعر أن البيت بيته، ولن يشعر بعد ذلك بحسد سيده.

أما الشعوب فأمرها أشق، ولا يزالون يعالجون أسباب الحروب فلم يهتدوا إلى سبيل. وقد عادت أنغام الحرب تتردد، ولما تلتئم الجراح من الحرب السابقة. وعندنا أنه لو أُفسح المجال أمام كل شعب نحو التقدم والرقي، فلا نحسب أن القلوب تطوَّى على البغض والحسد كما هو اليوم.

ومن جهة أخرى يجب على الأمم أن تمد يد المساعدة للأمم الأخرى في نكبتها التي لا حيلة لها فيها، فإن الخير من أعظم العوامل في دفع الحسد. وكذلك حال الجار الغني الذي يقدم المعونة لجاره الفقير في ساعة محنته وشدته، وفي ذلك قال الشاعر:

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ

فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

ولكن الغريب في طبائع البشر أن الذين يتمكن الحسد من قلوبهم، لا يفيد في اقتلاعه إحسان أو معروف، قد يخف الحسد، ولكنه لا يزول

تمامًا. ثم ينطوي المرء على نفسه يأكله الحسد ويفكر في الانتقام، ولذلك لا ينصرف إلى أداء عمل ينفع به نفسه أو ينفع به المجتمع الذي يعيش فيه. كل ما يطلبه أن يأخذ ما في يد غيره، وأن يتمتع بالنعم التي ينعم بها الناس. فإذا لم يحصل عليها عمل على إفسادها. وهذا كثيرًا ما يقع في الريف المصري، حيث يقلع الزرع أو تسمم الماشية، لا انتقامًا من صاحبها أو ردًّا على اعتداء قام به، بل حسدًا له. وقد تعجب هل يُقدم أحد على فعل الشر دون سبب، كالغراب الذي يخطف الصابونة كما يُقال في الأمثال العامية، فهذا هو شأن الحاسد إذا أقدم على إفساد حاجات الناس، لا ترى علة ظاهرة تدفعه إلى ذلك، ولكن العلة في باطن النفس وهي الحسد. ثم إن المصائب إذا حلَّت بالناس من شأنها أن تثير الشفقة والعطف والمبادرة إلى معاونتهم والمشاركة في آلامهم. ولكن قلب الحاسد لا يهتز للألم، ولا يرق للمصيبة، بل على العكس من ذلك، يسر لما يحل بالناس من متاعب، ويفرح لآلامهم ومصائبهم، والعياذ بالله.

ويظهر الحسد من أمور ثلاثة: المال والسلطان والعلم.. والمقصود بالمال السعة في الرزق، وبالسلطان المنزلة بين الناس، وبالعلم كسب المعرفة، ثم الكتابة والتأليف. والحسد بين العلماء أعنف وأقوى؛ لأنهم يصورون الأحوال التي تدور في نفوسهم ويسجلونها في الكتب والرسائل، فتشتهر في الناس وتسير مع الزمان. ونحن نرى أن الحسد واحد سواء أكان بسبب المال أم المنزلة أم العلم، ولكن الجاهل الذي يحسد غيره لماله، لا يستطيع التعبير عما في نفسه بالكلام، فيظهر ذلك

في أمارات وجهه أو في سلوكه. وليس من الضروري أن يكون المال نقدًا، فنحن نعبر بالمال عن أي ثروة أو نعمة يتمتع بها الإنسان من طعام وشراب ومسكن وملبس وما إلى ذلك.

وقد فطن الناس من قديم الزمان إلى تأثير الحسد في زوال النعمة، فأشركوا الجيران في التمتع بها اتقاء لشر الحسد. ومن الظواهر الجارية في أغلب الشعوب أن يتخفى الجائع حين يأكل ويستر نفسه ولا يأكل على الملأ علانية. وبهذا تنصح الأخلاق العملية أو آداب السلوك. والسر في ذلك: خشية الآكل عين الحاسد. ومن الأغنياء من يفعل ذلك، فإذا أكل علانية تناول طعام الفقراء حتى لا يُقال عنه من الأغنياء. ومنهم من يظهر في ملابس متواضعة رقيقة، وليس سبب ذلك البخل في جميع الأحوال، بل قد يكون اتقاء للحسد. وقد سمعنا عن قوم من الأثرياء يملكون الألوف من الأموال، ويأبون ركوب عربة أو دابة، ويقطعون المسافات الطويلة على الأقدام، ويلبسون الأحذية البالية، فإذا سُئلوا في ذلك أنكروا ما عندهم من أموال. ولذلك يفضل الأغنياء أن يستروا أنفسهم وأموالهم حتى لا يطَّلع عليها أحد.

ونستطيع أن نضيف ونحن مطمئنون إلى أسباب الحسد -غير المال والسلطان والعلم- المرأة؛ فهي -على رأي فرويد- الأصل في كل سلوك، وهذا صحيح إلى حد كبير. وقديمًا حسد قابيل هابيل من ولد آدم؛ لأن زوجة أحدهما أجمل من الأخرى. ولا يزال الناس حتى اليوم يحسدون الرجل إذا وُفِق إلى الزواج من امرأة جميلة.

والذي ننصح به، وقد علمت أن الحسد داء ليس له دواء، أن نستخف بالحساد ولا نحفل بهم، وأن نتمثل بشعر نصر بن سيار:

إني نشأت وحســـــادي ذوو عدد

فيا ذا المعارج لا تنقص لهم عـــــــددَا

إن يحسدوني على ما بي لما بهـم

فمثل ما بـــي مما يجلب الحســـــــدَا

❊ ❊ ❊

المال

المال محرك بالغ الأهمية في حياة الإنسان، فلا يكاد يخطو أحدنا خطوة إلا برنين الذهب. ونحن لا نجد المال محركًا للإنسان فحسب ودافعًا له فقط، بل يجتذبه كذلك كأنه المغناطيس الذي يجتذب الحديد، أو السحر الذي يؤثر في القلوب والعقول. وفي هذا المعنى قال القدماء: «رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب»، وقالوا: «رأيت الناس قد انفضوا إلى من عنده فضة»، وقالوا: «رأيت الناس قد مالوا إلى مَن عنده مال» وقال أمير الشعراء شوقي بك:

والمـــال مذ كان تمثال يـــؤم بـــه

والناس مذ خُلقوا عُبَّـــاد تمثـــال

والقدماء في ذلك على صواب؛ إذ لا ريب أن المال يلعب في حياة كل فرد دورًا عظيمًا، مع أنه لا يُؤكل ولا يُشرب ولا يُلبس ولا يسد حاجة من هذه الحاجات الفطرية الضرورية، التي يحتاج إليها الإنسان في حفظ كيانه واستقامة معاشه.

كيف إذَنْ تدخَّل المال في الحياة الإنسانية هذا التدخُّل، بل تغلغل هذا التغلغل. وهذا هو السر الذي يحتاج منا إلى بيان.

حقًّا لا يؤكل المال ولا يُشرب ولا يُلبس، ولا يسد حاجة من هذه الحاجات الفطرية التي يطلبها الإنسان، ولكنه أصبح الوسيلة لقضاء الحاجات، أو لشراء هذه المطالب الضرورية كالطعام والشراب، والكساء والدواء. وكلما تقدم المجتمع في سلم الحضارة ازداد تعقيدًا وتنوعت المطالب. أما البداوة فإنها تمتاز بالبساطة حتى ليستطيع الفرد الواحد، أو الأسرة القليلة العدد، القيام بنسج الملابس وبناء البيوت وتوفير الطعام. ولكننا مع الحضارة الحديثة نسكن في دور يتعاون في بنائها آلاف العمال: هذا يصنع الحديد، وذاك يصنع الخشب، وهذا يقوم بالطلاء وذاك يُعنى بالزخرفة، وما إلى ذلك مما لا يحتاج منا إلى تعريف وبيان. وقد أصبحت كثير من الكماليات كأنها ضروريات لا تستقيم المعيشة إلا بها.. فأنت تطلب التليفون لسهولة الاتصال، والسيارة لسرعة الانتقال، ولكنك لا تستطع أن تصنع التليفون أو السيارة لنفسك كما يغزل البدوي ملابسه من صوف الأغنام. ولا بد لك من هذه الأداة الضرورية أو العصا السحرية التي تجلب لك ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، نعني المال.

والكماليات التي تطلبها المرأة أكثر مما يطلبه الرجل كالحُلي والملابس، وهي كلها مما تُشترى بالمال، الذي أصبح الوسيلة للتعامل، فهو وسيط أو بديل عن هذه الحاجات المختلفة، وهو رمز أو اصطلاح ليس له في ذاته قيمة بعد أن استبدلت الذهب والفضة بالورق. وسواء أكان المال ذهبًا أم ورقًا، فإن القيمة الحقيقية في الأشياء التي يمكن الحصول

عليها بهذا الذهب أو الورق، فإذا عزَّت الحاجات نزلت قيمة الذهب وأصبح المال لا يساوي شيئًا، ويتضح ذلك في أيام الحروب والمجاعات. وقد قرأنا في التاريخ عن المجاعة الشنيعة التي حدثت في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي، وكيف كان الواحد يعرض مئات من الجنيهات ليحصل على رغيف من الخبز فلا يجده. أذكر أنه بعد الحرب الكبرى الماضية هبطت قيمة المارك الألماني هبوطًا عظيمًا، واشترى كثير من المصريين عملتهم في هبوطها طمعًا في ارتفاعها بعد ذلك، فضاع عليهم ما دفعوه من عملة، وأصبح المارك لا يساوي شيئًا لأنه لا قيمة له.

وهذه ظروف طارئة لا يُقاس عليها في كل زمان. أما في الأحوال العادية، فالمال هو السبيل إلى الحصول على الحاجات المختلفة، ولذلك كانت له هذه المنزلة وهذا السلطان. ولا تتضح لك هذه الحقيقة وتبرز إلى العيان إلا إذا حُرمت منه وأصبحت يدك صفرًا من النقود. وكنت على سفر في إيطاليا قبل الحرب -وأعني أيام الرخاء- وكانت معي عملة إيطالية قدَّرت إنفاقها في أيام معدودة، ولكني أخطأت في الحساب، وظهر لي أن ما معي لن يكفي المدة الباقية لإقامتي في مدينة ميلانو، واضطررت إلى الامتناع عن مطالب كثيرة حتى لا ينكشف أمري، من ذلك أني أقلعت عن التدخين أربعة أيام متواليات.

فلما رأى الإنسان أن المال أداة لا غنى عنها في الحصول على شتى الحاجات، شرع يجمعه ويخزنه إلى وقت للضرورة والاحتياج. وليس الاختزان في ذاته باطلًا، بل هو فطري في الحيوان، وهذا ما يُعرف بغريزة الجمع والاقتناء؛ فالنحل يخزن العسل في الخلايا التي

يبنيها صيفًا حتى يتغذى منه في الشتاء، وكذلك يفعل النمل، فإذا اقتنى الإنسان فإنه لا يفعل بدعة، بل يتصرف كما يتصرف الحيوان الذي ألهمته الطبيعة حفظًا للحياة. ولكننا نفهم أن يختزن الفلاح القمح ليأكله، وكذلك اللحم يقدده، والفاكهة يجففها؛ لأنها مما يؤكل ويسد حاجة الطعام. أما المال فإنه يُخزن ولا يؤكل، وكثيرًا ما ينسى جامع المال أنه وسيلة إلى تحقيق الأغراض، فيجمعه لذاته، ويصبح اقتناء المال غرضًا في نفسه لا وسيلة للحصول على الحاجات.

والأصل في الحياة تحقيق الأمن، حتى لقد برز هذا الغرض في العصر الحاضر بشكل واضح، بعد أن رأى الإنسان كيف تهلك الحرب الحديثة الحرث والنسل وتبيد الحيوان والإنسان، مع اختراع هذا السلاح الفتاك وهو القنبلة الذرية. فقالت الشعوب نريد الأمن، وأنشأت الدول مجلس الأمن لمنع الحروب. والفرد في حاجة إلى تأمين نفسه من المخاطر التي تهدد حياته مثل حاجة الشعوب والدول. وحياة الفرد معرضة للخطر من أمور كثيرة كاعتداء اللصوص وفتك القتلة والمجرمين والسفاكين للدماء، وتعرُّض الجسم للأوبئة والأمراض المهلكة للنفوس الفاتكة بالأبدان، ولا بد لنا أن ندفع عنا هذه المهلكات. والأصل في ذلك أن يدافع المرء عن نفسه بقوة ساعده مع الإقدام والشجاعة، ولكنه رأى الأمن كذلك يُشترى بالمال، فهو يستطيع أن يستأجر الخفر ويقيم الحرس، وكذلك تفعل بعض الدول في التاريخ القديم والحديث من شراء الجند لتحقيق الأمن، والجند المرتزقة مشهورون في التاريخ.

بل الحياة الجنسية نفسها التي يزعم فرويد أنها الدافع الأول في سلوك الإنسان، تُشترى بالمال؛ فالمرأة لا تُقبل على الرجل، والرجل لا يُقبل على المرأة، نعني أن يشتهيها ويحبها وينظر إليها نظرة الشوق والطلب، إلا وهو يُنزل في حسابه قيمة هذه المرأة من حيث المال وكم تساوي. فإن كنت في ريب مما أحدثك عنه، فانظر إلى نفسك إذا كنت متزوجًا ماذا فعلت عند الزواج، وكيف طلبت المرأة التي تزوجتها، وهل كان شرط المال مما تعمل له حسابًا أو لا. وكذلك الفتاة وأهلها يزنون الزوج الذي يخطب ابنتهم بميزان المال، ويفضلون خطيبًا على آخر من حيث مقدرته على الإنفاق، وكثيرًا ما يضحون باعتبارات كثيرة كالسن أو الجمال أو المنزلة الاجتماعية، ويفضلون صاحب الثروة الذي يستطيع الإنفاق على الدار واقتناء الأثاث والحشم والخدم. ولعلهم في ذلك على حق؛ لأن الحياة الجنسية الصحيحة، من أي ناحية نظرت إليها، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أم الاجتماعية، فإنها لا تستقيم إلا مع الزواج، والزواج يتطلب الاستقلال في بيت خاص ويحتاج إلى نفقة في أجره وإضاءته وخدمته، وفي الطعام والشراب والملبس. هذا إلى أن الزواج لا ينتهي مع اتصال الرجل بالمرأة، أو الزوج بالزوجة وإشباع الرغبة الجنسية، بل له غاية أسمى وأعمق هي إنجاب الأولاد، ولهذا السبب يتزوج الناس، ويصبحون أرباب أسرة. ونحن نعلم كم يكلف الولد في العصر الحديث، وكم يحتاج من مال في تربيته التربية اللائقة. فما بالك إذا كثر النسل وأنجب الرجل عدة أبناء، فإنه يحتاج إلى مال وفير ليحفظ لهم المستوى الذي يطمع فيه من صحة وثقافة، ولهذا

السبب يؤثر كثير من الناس الامتناع عن الزواج لما يتطلبه من نفقة، وإذا تزوج أحدهم عمل على تحديد النسل حتى لا يقع في هذه المحظورات.

وإذا كان المال يحقق كما رأينا الأمن، ويوفر الحياة الجنسية، فإنه كذلك يحقق دافعًا من الدوافع الهامة في سلوك الإنسان، يجعله العالم النفساني أدلر على رأس الدوافع الإنسانية، وهو السيطرة. لقد أصبح السلطان الحقيقي سلطان المال، به نصل إلى المنزلة الاجتماعية، وبه نحقق المظاهر المختلفة التي يحب كل واحد أن يحيط نفسه بها، من اقتناء منزل عظيم، وسيارات فاخرة، وخدم يقفون بالأبواب، وحفلات يُدعى إليها الأهل والأصدقاء، فضلًا عن مظاهر الزينة التي يُفتن بها الناس افتتانًا، ويحيطون بها أنفسهم في الدور والقصور، ويحلون بها أجسامهم كالخواتم والعقود. ويبدو أن حب الزينة والفخفخة والتظاهر من الفطر التي لا يستغني عنها المرء في تاريخه القديم أو في الزمن الحاضر. ونحن نقرأ في التاريخ عن زواج قطر الندى بنت خمارويه وكيف جهزها أبوها بصناديق مُلِئَت بالجوهر الكريم والذهب البرَّاق، فنعلم أن قيمة الناس فيما يملكون من مال.

كل شيء يُشترى بالمال إلا شيئًا واحدًا، هو المعاني الروحية التي لا تُقدَّر بالموازين المادية، كالحب والسعادة، ولذلك كثيرًا ما نسمع عن انتحار بعض الأغنياء، أو طلاق أزواج في غاية الثراء، أو دخول بعض الناس الدير للترهُّب زهدًا في الدنيا، وطلبًا لنعيم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٧].

البخل

البخل ظاهرة تشيع في كل عصر وتسود في كل أمة، حتى لقد ألَّف فيها الجاحظ كتاب «البخلاء»، جمع فيه نوادرهم ووصف أحوالهم، ولا يزال كتابه درة من عيون الأدب.

وصنَّف أدباء الغرب في البخل الروايات والتمثيليات، ونظموا في ذلك الأشعار، وسجلوا الحكم، وقيدوا المواعظ. وهو يُعَدّ خَصْلة مذمومة نهى الله تعالى عنها، فقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] فقد جعل الله النهي في صيغة الأمر طلبًا لصلاح الأنفس وقيام العمران.

والبخلاء أصناف، منهم من يصطنع البخل لتأمين حياته من الفقر والخوف والهلع، وصنف يخضع بُخله للطموح والطمع، ونوع ثالث يبخل للجشع ويطلب ألوانًا من المتع. وهذا يدل على أن البخل يرجع إلى أصلين مختلفين: أحدهما: حب الاستقلال أو الرغبة في الأمن، والثاني: نزعة السيطرة وحب الجشع.

وينبغي أن نعلم أن البخيل لا يُولد كذلك، بل هذه خَصْلة تنشأ وتنمو مع الزمن، وعادة يُنتهى إليها بالألفة، فلم يكن غرض البخيل الذي يهدف إليه في أول الأمر المال لذاته، بل تحقيق هذه المطالب كالأمن من الخوف والفقر أو الغلبة والسلطان، باعتبار أن جمع المال هو السبيل إلى ذلك. فإذا به ينتهي إلى محبة المال لذاته، ويصبح جمعه غرضًا بعد أن كان وسيلة. كالحال في الحبيب الذي يتخذ واسطة بينه وبين محبوبته، ثم ينتهي إلى محبة الرسول التي كانت واسطة بينهما.

وللبخل تفسير آخر مستمد من أصول علم الحياة؛ ذلك أن كل كائن حي، نباتًا كان أو حيوانًا، يحرص على بقائه بالفطرة والغريزة، وحب البقاء غريزة كذلك في الإنسان، ولكن يضاف إليها العقل. فالجمع والاقتناء والاختزان ظاهرة حيوية توجد في الحيوانات بغير شعور، بل إنها لتوجد في خلايا الحيوان قبل أن توجد في سلوكه بأجمعه، فالخلية تختزن مادتها الحية مما تتغذى به فيما بعد، ويختزن الجمل في سنامه الشحم والماء كي يجتاز الصحراء. ويحتفظ الصبار -وهو من النباتات الصحراوية- الماء في أوراقه، ويجمع النحل العسل في الخلايا صيفًا ليتغذى منه في الشتاء. ولكننا لا نقول إن النحل أو الطير بخيل لأنها تجمع الغذاء وتخزنه؛ لأنها تفعل ذلك بدافع من وحي الغريزة، ويفعله الإنسان بدافع من العقل والشعور. وإذا حصل الحيوان على حاجته قنع واكتفى، أما بخل الإنسان فلا نهاية له ولا يعرف الحدود.

فالبخل مذموم؛ لأنه تطرف في الجمع والاقتناء وإفراط في الاختزان، ولذلك جعلوا الاقتصاد، فضيلة ورفعوا البخل إلى مرتبة

الرذائل، وكأنه انحراف بالفطرة نحو الفساد.

وللبخلاء في جمع المال نوادر هي إلى الفكاهة أقرب. أعرف جارًا كان يعيش من أرض يؤجرها ولم يكن إيرادها كبيرًا، وكان يقتصد في النفقة اقتصادًا شديدًا حتى يتضاعف الريع، ومن أمثلة اقتصاده أن يستيقظ من النوم متأخرًا حتى يجمع بين طعام الإفطار والغداء، فتكون أكلة واحدة بدلًا من أكلتين. وكل درهم يقتصده ثروة؛ لأن الدرهم على الدرهم مال، والقطرة على القطرة بحر. ويقتصد قوم من نفقة الركوب، وخصوصًا في المدن الحديثة حيث تكثر السيارات والترام، ويقولون: في المشي رياضة والسير على الأقدام صحة؛ لأن السعي هو الأصل في الحياة والسكون موت، فضلًا عن توفير أجرة الترام ونفقة السيارة.

وأغلب البخلاء نشأوا في أحضان الفقر، وذاقوا طعم الذل، وعرفوا قدر المال وقد رُوي عن بخلاء من أبناء الأغنياء، وهؤلاء شواذ من القاعدة، فالبخل استجابة طبيعية لموقف سابق رأى فيه البخيل الحرمان رأي العين، فعزم على تأمين نفسه من تلك المواقف التي يمد فيها يده للناس ويشعر بالحاجة إليهم، ولذلك يبدأ بحرمان نفسه من أنواع المتاع، ويعلِّم نفسه احتقار المظاهر، ولا يأنف أن يرقع الثوب ويخصف النعل ويصوم في الأسبوع يومًا أو يومين، ثم يحتج لذلك بشتى الحجج، بل يستندون إلى الدين، فيقول قائلهم: كان النبي عليه السلام يرقع ثوبه ويخصف نعله، وكان السابقون الصالحون يصومون الدهر، ويُروى عن أبي بكر الصديق قوله: إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم.

فأنت ترى كيف يدور تفكير البخيل حول المال واقتنائه، فلا يعود يبصر غير ذلك. ولذلك يبرع في فن الاقتصاد واستثمار المال، ويعمل حسابًا لكل صغيرة وكبيرة، وينظر إلى المستقبل البعيد، ويثبت إرادته على الشح والتقتير، فلا تزحزح إرادته أي عاطفة ولو كانت عاطفة الأبوة. وكم من والد بخيل كان يحرم أبناءه النفقة، فكان ذلك سببًا في تضييع الأبناء الثروة بعد موت أبيهم.

والبخل إذا اشتد يميت العاطفة، ويجعل القلب جامدًا، والعقل محدودًا قاصرًا، ويلبس البخيل مسوح الصوفية، ولكنه يفني ذاته في المال، بينما يفني الصوفي ذاته في الله.

وينشأ عن اقتصار عقل البخيل على المال وحده، أن يَعمى عن سائر الحركات الإنسانية الجارية، كالفنون والآداب والعلوم والمشكلات الاجتماعية.

هذه الخلال التي يتطبع بها البخيل، من جمود القلب، وضيق العقل، والعزلة عن الناس، تفضي به إلى الاستبداد. وقد حدثنا الروائي الفرنسي بلزاك -في قصة جراندیه- كيف كان يستبد بزوجته ويفزع ابنته، وهذا كله ناشئ من شعوره بانتصار إرادته التي تغلب بها على نفسه في سبيل جمع المال، فلم يعد يحفل بمطالب الجسم، فيخيل إليه أن إرادته أصبحت من حديد، ويستطيع أن يتغلب بها على كل شيء. ولكن إرادته لا تنفذ إلا في أهله الذين يخضعون له بالطبيعة، ومع ذلك فكثيرًا ما يثور الخدم والزوج والولد، فيهجرون هذا الرب البخيل.

ولا تحسبن أن أغنياء البخلاء يحسنون أعمال التجارة أو الصناعة مما تحتاج إلى مجازفة، فقد طبعوا على الخوف، وما كان جمعهم المال إلا لتأمين أنفسهم، وهم لذلك يكنزون المال فلا ينتفعون ولا ينفعون به الناس، وإنما كل همهم جمعه وتكديسه وعده. فهم يحبون الادخار ولا يميلون إلى المخاطرات، ولذلك قل أن تجد بخيلًا ينزع إلى الجريمة؛ لأنه مطبوع على الخوف والحرص لا على المخاطرة والإقدام.

وهذا الميل إلى الأمن والجمع والادخار يدفع البخيل إلى العزلة عن الناس والابتعاد عنهم، ولا يحب أن يطلعهم على أحواله، فهو قليل الكلام، قليل الاختلاط. لا تهمه أفراح الناس وأحزانهم، ولا يشاركهم في متاعبهم وآلامهم.

روى الجاحظ قصة أحد البخلاء كان يأكل في بعض المواضع، إذ مرّ به رجل فسلم عليه، فرد السلام. فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعًا يريد أن يعبر النهر، قال: مكانك فإن العجلة من الشيطان. فوقف الرجل. فأقبل عليه البخيل، وقال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أتغدى. قال: ولِمَ ذلك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل أو ليس قد دعوتني؟ قال: ويلك! لو ظننت أنك أحمق هكذا، ما رددت عليك السلام. القانون -فيما نحن فيه- أن نكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار تبدأ أنت فتسلم، فأقول أنا حينئذ مجيبًا لك: وعليكم السلام. فإنْ كنتُ لا آكل شيئًا سكتُ أنا وسكتَّ أنت، ومضيتَ أنت وقعدتُ أنا على حالي. وإنْ كنتُ آكل، فهاهنا بيان آخر، وهو أن أبدأ أنا فأقول: هلم، وتجيب أنتَ فتقول هنيئًا، فيكون كلام بكلام. فأما كلام بفعال،

وقول بأكل، فهذا ليس من الإنصاف.

ومما لاحظه بعض علماء النفس المحدثين أن البخيل طويل العمر؛ وذلك لأن الاقتصاد في المال الذي يمتاز به يشمل جميع قواه النفسية، فهو يقتصد في التفكير ويقتصد في الكلام والحديث، ولا يسرف في الانفعال أو الأعمال. وليس أضر بالحياة من التعرض للانفعالات والمخاطر.

ومما سجله علماء النفس كذلك عن البخلاء قلة ثقتهم بالناس، واعتمادهم على أنفسهم كل الاعتماد، وعدم تصديقهم ما يقال ولو كان شديد الوضوح لا يقبل الجدال، فهم أدنى إلى الواقع وأبعد عن الخيال، ولا يحكمون على الأشياء إلا بمقتضى تجاربهم الخاصة، مهما تكن هذه التجربة محدودة، ولا يصدقون إلا ما شاهدوه وأحسوه، فإذا وثقوا في أحد فإنما يثقون به لأنه على شاكلتهم.

والبخلاء إلى ذلك فيهم فكاهة لطيفة. كان أحمد بن خلف اليزيدي من ظرفائهم، فألحّ عليه أصدقاؤه أن يدعوهم، فلما بلغ منه ومنهم المجهود، اتخذ لهم طعامًا خفيفًا لا مؤونة فيه. فلما أكلوا وغسلوا أيديهم أقبل عليهم، فقال: أسألكم بالله، أنا الساعة أيسر وأغنى أم قبل أن تأكلوا طعامي؟ قالوا: ما نشك أنك كنت -والطعام في ملكك- أغنى وأيسر. قال: فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة؟ قالوا: بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر. قال: من يلومني على ترك دعوة قوم قربوني من الفقر وباعدوني من الغنى.

معادن

- أصنـــاف النـــاس
  - المسالمـــــون
  - المعتـــــدون
  - الواهمـــــون
- ثمـــن النـــاس
- في الصداقة والصديق

أصناف الناس: المسالمون

الناس أصناف، تجمعهم الإنسانية أو لفظة إنسان، ولكنهم ينقسمون فيما بينهم صنوفًا على حسب وجهة النظر التي نتخذها. قد نقول الإنسانية جنسان الذكور والإناث أو الرجال والنساء، وقد نقول -بحسب السن- الأطفال والشباب والكهول، أو -بحسب اللون- البيض والسمر والسود، وهكذا.

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى قسمة أخرى بحسب الأمراض النفسية، وبحسب المجتمع، فقالوا: من الناس من يقبل على المجتمع الذي يعيش فيه ويحاول الشركة مع أفراده في التعامل، وهؤلاء هم الوادعون المسالمون. ومنهم من يخرج على المجتمع ويحاول الاعتداء على أفراده وهم المشاكسون. ومنهم من يهرب من المجتمع ومن نفسه، فيتصور أنه شخصية جديدة تعيش في عالم الوهم والخيال، وهم الواهمون أو الحالمون.

ويبدو أن هذا التقسيم على صواب، نعني النظر إلى المجتمع حين ننظر إلى الفرد؛ إذ لا ريب أن كل إنسان يعيش في جماعة ويتصل بها أوثق الاتصال في أسرته وفي مدرسته وفي وطنه. أما أولئك الذين يذهبون إلى أنّ الفرد مستقل الكيان يمكن أن ننظر إليه على حدة بصرف النظر عن المجتمع الذي يعيش فيه، ويقولون بوجود «علم نفس فردي» فهؤلاء واهمون.

حقًّا يُسمَّى الشخص شخصًا لأنه فرد، ولأنه ذات مستقلة، ولذلك كانت له شخصية، إلا أن هذه الشخصية نسبية، أي أنها توصف كذلك بالنسبة إلى غيرها من الأشخاص. نقول هذا الشخص ذكي بالنسبة إلى الأغبياء، وقد يكون غبيًّا بالنسبة إلى أشخاص أشد ذكاء. بل إن ما يحدد شخصيته ويبرز معالمها هو اتصاله بغيره من الناس، ولو أنك انتقلت من الجماعة التي تعيش بينها إلى جماعة أخرى لتغيرت شخصيتك واكتسبت شخصية جديدة، نتيجة التعامل مع هذه الجماعة الجديدة.

فنحن إذَنْ على حق حين نقول إن اتصال المرء بالمجتمع، يخلق منه أحد أشخاص ثلاثة: المسالم والمشاكس والواهم.

المسالم أو الوديع هو ذلك الذي يتجه نحو الجماعة ويقبل على الناس، إنه يريدهم لحاجته إليهم، فهو يحتاج إلى العطف والمحبة، وإلى التأييد والاطمئنان، وإلى الشركة بوجه خاص. هذا الصنف يصبح صديقًا ومحبًّا، وزوجًا يحتمل مسؤولية الحياة بما فيها من خير وشر.

ومتى اتصل المسالم بغيره كالصديق أو الحبيب أو الزوجة، أصبح

شريكًا يتعلق بهذا الشخص الآخر وقد يخضع له، ويفهم الأمور من وجهة نظره. وهو لهذا السبب قد يخطئ في تقدير الظروف، لا عن جهل أو غباء أو عجز عن الإدراك، بل عن ضرورة هذه الحاجة الملحة إلى طلب الناس. إنه يحس إحساس الطفل الصغير تحيطه الحيوانات المفترسة تريد اغتياله. رأى أحدهم في الرؤيا أو الحلم أنه يقف وحيدًا وإذا بنحلة كبيرة تريد أن تلسعه، وكلب يهم بعضه، وقطة توشك أن تنقض عليه. وتفسير هذه الرؤيا أن صاحب الحلم يعجز عن الاعتماد على نفسه، ويرى المجتمع ذئابًا تريد أن تنقض عليه فتنهشه، وهو لذلك يرغب في المسالمة وفي المحبة وفي العطف. يريد أن يشعر بأنه مطلوب مرغوب فيه محبوب، يرحب به الناس إذا أقبل عليهم، ويقدرونه إذا قام بعمل من الأعمال، بل أكثر من هذا يريد من الناس مساعدتهم له، وحمايتهم إياه وإرشادهم له والعناية بأمره.

وراء ذلك كله الشعور بالأمن المفقود.

ويقوده طلب الأمن إلى صبغ سلوكه وتصرفاته بصبغة خاصة، تصبح مع طول الزمان خلالًا تتميز بها شخصيته.

فهو شديد الإحساس بما يطلب الناس، ولا يرد لهم طلبًا، بل يصل إلى حد الإسراع في تحقيق المطالب. وهو في سبيل ذلك قد ينسى نفسه فيصبح مضحيًا بنفسه مؤثرًا غيره عليها، إلا فيما يختص بالحب وهو مطلبه الأول. ومن الصفات التي تسود هذا الصنف من الناس الوداعة والرقة والكرم. وهذا الصنف يتجنب نظرة الشر والسوء،

ويبتعد عن المنازعات والمخاصمات، ولا ينزل إلى ميدان التنافس بل قد يميل إلى الخضوع، أو يتخذ لنفسه موضعًا في الصفوف الثانية لا الأولى، فيترك الظهور والبروز لغيره من المكافحين. وليس معنى ذلك أن الرغبة في الانتقام أو الانتصار لا تأكل نفسه، ولكنه يكبت كل صوت ينادي بالسيطرة أو الثأر، والسلطان لا يزول من نفسه لمجرد إخفائه، وقد ينفجر يومًا من الأيام، وعندئذ تكون ثورته رهيبة عنيفة، كما قيل في الأمثال: «اتقِ غضب الحليم».

ومن طرائف هذا الصنف نظرتهم إلى أنفسهم، إنهم يعتقدون في أنفسهم الضعف والعجز، ويحسون بشعور الصغار والضعة. فإذا تُرك وشأنه خُيِّل إليه أنه هالك لا محالة، كالسفينة التي تنحل عن الشاطئ فتتقاذفها الأمواج ولا تعرف شاطئ النجاة، فهؤلاء كالسفينة الضائعة يتصورون أنهم غير مستقرين ولا يعرفون لأنفسهم برًّا يطمئنون إليه، ولذلك كانوا في شكوى لا تنقطع ووهم دائم، ويقولون في الاعتذار عن الأخطاء: «يجب أن تصفح عني وأن تغفر لي لأني ضعيف عاجز».

وحيث إن هذا الصنف يخضع لغيره -كما قلنا- فهو يعتقد أن كل إنسان أعلى منه قدرًا وأعظم منزلة، وأقوى جاذبية، وأوفر ذكاء، وأغزر علمًا، حتى لقد يتضاءل أمامه.

هؤلاء المسالمون لا يعرفون قدر أنفسهم، ولو عرفوا قدرها ما رضوا بهذه المنزلة، ولذلك يعتمدون في تقدير أنفسهم على ما يقوله غيرهم فيهم، وهم لذلك يخافون النقد ويخشون الهجوم.

جملة القول يؤثر المسالم الحب، والعطف، والطيبة، والجود، والإيثار والخضوع، وينفر من الأثرة والطموح والقوة والوعورة، ولو أنه يقدِّر هذه الصفات بينه وبين نفسه.

ومن الخطأ أن نصف المسالمين بصفة واحدة من هذه الصفات، كأن ننعتهم بالخضوع كما يذهب أدلر، وإنما الصواب أن نرجع بهم إلى موقفهم من المجتمع.. فهم يتجمعون نحوه، ويقبلون عليه ويتمسكون بمودة الأفراد، ولذلك كانوا مسالمين خاضعين كرماء وما إلى ذلك.

على أن انصرافهم عن السيطرة والقوة، أمر لا يخلو من عجب؛ لأن هذا ينافي الطبيعة الإنسانية، والواقع أن هذه النزعات تظهر في أنفسهم ولكنهم يكبتونها -على حسب ما يقول فرويد- ويحدث هذا الكبت من دون شعور أو بغير وعي. ولكن كل كبت له علة، فما العلة التي تدفع المسالم إلى كبت مثل هذه النوازع؟ وما الفائدة التي يجنيها من قتل هذه القوى الطبيعية؟

العلة في ذلك أن شعور العداء، والقيام بالعدوان، يجعل الشخص مكروهًا فيفقد محبة الناس له. وهناك علة أخرى لكبت نوازع القوة والطموح، هي القضاء على كل صراع داخلي، والصراع يؤدي إلى انحلال الشخصية، وهو السبب الأعظم في أغلب الأمراض النفسية. ووحدة الشخصية سبيل إلى الهدوء والاطمئنان.

حدثني طالب أنه لا يستطيع الانتباه أو استذكار دروسه، ولم يكن صغير السن ولا يشكو فقرًا، فرأيت أنه يشبع رغبته الجنسية مع بنات

الهوى، فإذا عاد إلى نفسه استيقظ ضميره الديني وعذبه، فكان في صراع داخلي بين الغريزة والدين، بين الشر والخير. ولم تهدأ نفسه وتنحل عقدته إلا بعد القضاء على هذا الصراع. وحل مشكلة هؤلاء القوم لا تكون إلا بالزواج، وهم يطلبون الزواج لا لإشباع الرغبة الجنسية المادية، بل لشيء أعظم من هذا هو تحقيق المحبة. فالحب عندهم هو الغرض الأسمى الذي يسعون إليه، وتبدو الحياة بغير حب فارغة لا قيمة لها، وتصبح سائر الأشياء والأعمال خالية من المعنى بغير هذه الصلة، التي تجعل للحياة طعمًا وتنفخ فيها روحًا.

ولقد أفصح عن هذه المعاني كلها مجنون ليلى حين يقول:

فأمرض قلبي حبها وطلابهـــــا فيا آل ليلى دعوة كيف أصنــع
سأتبع ليلى حيث حلت وخيمت وما الناس إلا آلف ومـــــودع
كأن زمامًا في الفـــــؤاد معلقًا تقود به حيث استمرت وأتبــع

* * *

أصناف الناس: المعتدون

وهذا صنف آخر من الناس يخالف الصنف الذي سميناه بالمسالمين، الذين ينشدون السلم، ويؤثرون العافية، ويتوجهون إلى الجماعة يلتمسون فيها المحبة والمودة، فهم مع الناس حتى ليقال عن الواحد منهم إذا أسرف في هذه النزعة: «إمعة».

ولست أدري كيف أُسمي هذا الصنف الجديد. بدا لي أنه مشاكس، إلا أن هذا المعنى قد ينصرف إلى الشر والعبث، ولا يعبر التعبير الصحيح عن المطلوب. نريد أن نقول عن هذا الضرب من الناس إنه نزَّاع إلى الاعتداء، والإفراط في العدوان قد يُسمَّى طغيانًا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧].

والعدوان أو المهاجمة هو المعنى الذي نقصده وهو الذي يُضاد السلم، وفي هذا المعنى نظم يزيد بن ضبة شِعرًا يهاجم فيه هشام بن عبد الملك؛ لأنه حين ارتقى عرش الخلافة ذهب إليه مهنئًا، وقام الخطباء يثنون عليه ويمتدحونه، فاستأذنه يزيد بن ضبة في الإنشاد فلم يأذن له، فقال في قصيدة مطلعها:

أرى سلمى تصد وما صددنا وغيرَ صُدودها كنّا أردنا

إلى أن قال:

ونَكوي بالعداوة مَن بغانا ونُسعِدُ بالمودّة مَن وَدِدنا

فهذا الشاعر يعزم على العدوان يرد به على البغي فيما يزعم، ولم يكن الخليفة باغيًا، وإنما كان الشاعر يطلب التقرب على حساب غيره من الشعراء، وينشد النجاح وما يثمره ذلك من صلات ودنانير. وليست الحياة إلا كفاحًا، كما صورها داروين في عالم الأحياء، ورأى أن الغلبة في هذا الصراع للأقوى. ومن الناس قوم ينظرون إلى الإنسانية كأنها مجتمع حيواني يعتدي فيه القوي على الضعيف والويل للمغلوب. ولذلك كانت غاية هذا الصنف إخضاع غيره من الناس لسلطانه. وتختلف أساليب السيطرة من شخص إلى آخر، فواحد ينزع إلى القوة الجسدية، كما هي حال «الفتوات» من أولاد البلد، فلا يقر للفتوة قرارًا إلا إذا نزل في «خناقة» «وضرب بالروسية والكراسي والعِصِي والنبابيت»، ولا تعد حفلة زفاف الفتوة ناجحة، إلا إذا اعتدى على فتوات الأحياء الأخرى، وسالت الدماء وأطاح الضرب بالرؤوس.

غير أن الفتوة في الزمن القديم كانت شيئًا آخر أكثر من إظهار القوة البدنية، نعني النجدة وحماية الضعيف، ولعل ذلك من الأنظمة التي سادت في العصر الوسيط وكانت تُعرف بالفروسية. ولا يزال قوم يبدون قوتهم في مد يد المعونة؛ حتى يخضع الناس لسلطان العمل الصالح الذي يقدمونه، وقد يعتمد على ذكائهم في التمييز عن الناس والترفع عليهم.

وعلى العكس من المسالم -الذي يُخضع نفسه للناس- يجتهد المعتدي في استغلال الناس، واستخدامهم لمصلحته، فهو يحدث نفسه حين يعرف شخصًا جديدًا، فيقول: «كيف أستفيد منه»، سواء أكانت هذه الفائدة مالية أم أدبية أم اجتماعية. ويخيَّل إلى هذا الصنف أنَّ جميع الناس على هذه الحال من الاستغلال.

وهذه النزعة تفضي بأصحابها إلى اكتساب مظهر الخشونة، وقد لا يكونون كذلك في الواقع.

وهم لا يعرفون الحب، ولا يقدرون الصداقة؛ لأن الحب في جوهره إيثار وتضحية، فإذا تزوجوا كان الزواج للمصلحة، فيتخذ الزوجة لا ليسكن إليها، ولا لينشد في أحضانها المودة والرحمة، بل للمال، أو الجاه، أو ترتيب الدار.

على أن هذا الصنف لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلًا، أو إذا شئت التحديد، يغالب الخوف فيصرعه؛ لأن الخوف فطرة طبيعية في كل نفس، فهو يقذف بنفسه في المهالك ويعوّد نفسه الجرأة، قد يحبس نفسه في بيت مهجور ولا يخشى اللصوص أو العفاريت، ويجتاز المفاوز المفزعة في الظلام الدامس، وقد يهرب كثيرون منها. والأرجح أن التغلُّب على الخوف عادة يألفها المرء منذ الصغر، وقد تجد كثيرًا من المسالمين لا يهابون الأخطار. أذكر وأنا طفل صغير، أو هكذا كان أهلي يحكون، أنني كنت أخاف «الكابوس»، وكنت أتصور الكابوس في الرؤيا شيئًا مفزعًا هو مزيج من الحيوان والعفريت، وكنت لذلك

أرهب صعود سلالم الدار في الظلام، حتى إذا صلب عودي لم أعد أفزع من شيء.

والمعتدون محاربون بالطبع، إما بقوة الإقناع، وإما بشدة السواعد والسلاح إذا لم يفلح المنطق ولم يقنع البرهان، ومنهم المشاغبون أو المشاكسون الذين يفنون أعمارهم في المحاكم ويرفعون القضايا يطالبون فيها بالحقوق. فإذا خسروا القضايا لم يعدموا وسيلة أخرى من وسائل الوصول إلى المآرب وتحقيقها، وهي وسائل تسود في الريف المصري ويعرفها الفلاحون، نعني حرق زراعة الخصم، وسرقة مواشيه، واقتلاع محصولاته، وهذا انحراف بالاعتداء إلى ناحية الشر، كأن القانون الذي يهدي القوم هو قانون الغابة.

ويتصف المعتدون بصفات يتسمون بها وتُعرف عنهم، وهي ناشئة عن طلب القوة والحذق. إنهم يبذلون أقصى ما يمكن بذله في العمل، ولذلك يكون الواحد منهم موظفًا بارزًا في عمله، أو ما يسمونه الموظف الكفء، والتلميذ المجتهد، ورجل الأعمال الناجح، فيقدره الرؤساء والأساتذة وأصحاب الأعمال، هذا إذا رضي مثل هذا الصنف بالبقاء في منزلة التابعي، ولكن الغالب أنهم يطمحون في مرتبة الرؤساء.

ويترتب على الإخلاص في العمل والإقبال عليه مع موالاته واليقظة فيه، قوة الإرادة ونفاذ العزيمة. يحب المعتدون أن تتحقق رغباتهم وتُطاع أوامرهم، وألا يقف شيء في سبيل ما يريدون، والغالب أنهم من الناحية الفلسفية يميلون إلى المذهب الواقعي الذي ينظر إلى الحياة

كما هي بما فيها من خير وشر، وهم يحلون المشاكل حلًّا واقعيًّا بعيدًا عن التأثر بالعواطف والصداقات.

وقد تُوصف الشعوب بأحد الصنفين، فهناك شعب أغلب أفراده مسالمون، وشعب معظم أفراده معتدون. وأظن أن الشعب المصري، إذا حكمنا عليه من استقراء التاريخ، لرأينا أنه في جملته مسالم لا يميل إلى العدوان، ولا يحب شق الطريق والانغماس في المخاطر، وهو لذلك لا يميل إلى الابتداء بالحرب واستعمار الشعوب المجاورة، بل على العكس، يدل التاريخ على أنه كان ضحية الغزوات الخارجية وعدوان المستعمرين، ولا يحب أفراده الهجرة والتماس الرزق في الأماكن البعيدة عن الأهل والأصدقاء والأحباء، حتى لقد يخشى الموظف أن ينقل من المدينة التي نشأ فيها. وليست هذه الصفات فطرية لا يمكن تعديلها، بل هي ناشئة عن التربية من جهة، وعن ظروف البيئة السهلة التي عُرفت مصر بها من جهة أخرى، وأكبر الظن أن تغير الظروف الحاضرة، مع ازدياد عدد السكان، والتطلع إلى حياة أرقى، كل ذلك سوف يدفع المصريين إلى النزعة العدوانية حفظًا للحياة. ومن الخير للمصريين أن يميلوا إلى ناحية العدوان؛ فقد طال بهم عهد الركود والاستسلام.

ومن الأمثلة على الشعوب العدوانية -ولا نقصد بذلك الميل إلى الحرب دون مبرر، بل الجنوح إلى إبراز شخصية الفرد في كل مجال- الشعب الأمريكي، والمشهور أنه من نسل المغامرين الذين هاجروا من أوروبا يستعمرون الدنيا الجديدة، ويقيمون على أرضها

حضارة، ويكسبون ثروة. ولا تزال هذه النزعة تتملك معظم أهلهم حتى اليوم.

ولكن ما حال الشخص الذي تتعادل في نفسه النزعتان، نزعة السلام ونزعة العدوان؟ إذ لم يستطع هذا الشخص تغليب إحدى النزعتين، حدث في نفسه صراع شديد، هو السر في ظهور اضطراب نفساني لا سبيل إلى علاجه، إلا بالخروج من هذه المشكلة بترجيح جانب على آخر، إما الخضوع والاستسلام، وإما الاعتداء وطلب السلطان.

جملة القول أن المسالم إذا شتمه شخص قال: «سامحك الله»، أما المعتدي فإنه يرد الشتائم بأحسن منها أو بأوجع، وإذا رأى المسالم سائلًا أعطاه ورقّ لحاله، أما المعتدي فإنه ينهره ويطرده. وإذا مرضت زوجة المسالم قام بتمريضها وسهر على راحتها وصبر على بلواها، أما المعتدي فإنه يطلقها أو يتزوج أخرى عليها.

* * *

أصناف الناس: الواهمون

هذا هو الصنف الثالث من الناس. فالأول هو الذي يقبل على الناس ويربط نفسه بأفراد المجتمع وهو المسالم. والثاني هو الذي يهاجم المجتمع؛ إذ يرى الحياة كفاحًا تقتضي الحرب للنصر فيها وهو المعتدي. والصنف الثالث لا يُقبل على المجتمع مسالمًا، ولا يهاجمه معتديًا، بل ينفر منه، ويبتعد عنه، ويقطع العلائق به، ويرغب في العزلة والانفراد.

وقد تكون هذه العزلة حقيقة واقعة، فيعتكف بعض الناس كالراهب في صومعته، أو الصوفي في الخلوة لا يتصل بأحد. وفي مصر طريقة من طرق الصوفية تُعرف باسم الخلوتية، أكبر الظن أنها سُمِّيت كذلك نسبة إلى خلوتهم في الخلوة، لا إلى شخص اسمه الخلوتي مثلًا.

وقد تكون العزلة وهمية، مثالية، فيتعامل الشخص مع الناس المعاملة الضرورية التي لا تزيد على مجرد المجاملة، ولكنه في الحقيقة يعيش في عالم من نسيج خياله. وهؤلاء على ضربين: إما قوم يصيبهم الذهول، فيكون الواحد منهم جالسًا مع غيره فلا يلتفت إلى ما يدور

حوله. ولعلك تلحظ مثل هؤلاء في الطريق وقد زاغ بصرهم، وذهبت حواسهم حتى لقد يدهمه الترام دون أن يتنبه. والضرب الثاني يخلق لنفسه مجتمعًا في الوهم والخيال، ويتصور نفسه على منزلة عظيمة في هذا المجتمع الموهوم. ولهذا السبب أطلقنا على هذا الصنف اسم الواهمين أو الحالمين، على الرغم من تفاوت الأفراد واختلاف حالة أحدهم عن الآخر.

وهم -على اختلافهم وتباينهم- يشتركون في بعض السمات العامة، منها غرابة الأطوار، وهذا ناشئ من الابتعاد عن المجتمع والانصراف عنه والانطواء على النفس، يُحكى عن الفارابي الفيلسوف أنه كان يحب العزلة، ولم يكن معتنيًا بهيئة ولا منزل ولا مكتسب، ويُذكر أنه كان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط، ويرى الانفراد على شرب الخمر ولا يحب المنادمة عليها.

ومنها التأمل أو النظر إلى النفس، وهذا شيء طبيعي؛ لأن الذي يقطع علائقه بالمجتمع ينفق وقته يتأمل في نفسه، وهذه مقدرة لا تتوافر لكل إنسان. فإذا استطاع أحد هؤلاء الواهمين أن يتحدث عن تأملاته، أصبح أديبًا يصور النفس الإنسانية وأحوالها، أو فيلسوفًا ومفكرًا مثل ديكارت والفارابي الذي حدثتك عنه.

والمقصود بانقطاع العلاقات بين الواهمين والناس، العلاقة العاطفية، كأن بينهم وبين الناس جفوة أو فجوة، وهم في ذلك على نقيض المسالمين الذين يطلبون المودة والمحبة، وهذه الأحوال تقع

لهم في بعض الأوقات من الحياة وتعد ضربًا من الشذوذ، وقد تطول هذه الفترات أيامًا وقد تمتد شهورًا أو سنوات. وأظن أن كل واحد منا تعتريه هذه النوبات من الانفصال عن المجتمع والانفراد بالنفس، ولكنها نوبات لا تدوم أكثر من لحظات قد تمتد إلى ساعات، ولكنها لا تتجاوز ذلك إلى الأيام والأسابيع، وإلا عُد صاحبها شاذًّا مريضًا يحتاج إلى العلاج.

ولما كان الواهمون يبتعدون عن المجتمع، فإنهم يقصرون أنفسهم على حاجاتهم الضرورية لا تمتد أيديهم إلى غيرهم. وإذا كان كل منا لا يحب السؤال أو الاعتماد على غيره، فهؤلاء يسرفون في الكفاية الذاتية، ولذلك يكتفون بالقليل، بل بما هو دون القليل، كما يفعل الزهَّاد.

ومن غرائبهم أن أحدهم إذا أصابه مرض تحامل على نفسه، لم يئن أو يتوجع؛ لأن الشكوى تدفعه إلى طلب المعونة من الناس، وهو لا يريد أن يتصل بالناس.

كل ذلك يجعل من الواهم عالمًا من الأسرار لا يعلم أحدٌ ماذا يجري بداخله، فهو في الغالب يأكل ويشرب وينام وحيدًا، لا يحب الشركة مع الأهل أو الأصدقاء. أما المسالم فلا يطيب له طعام إلا إذا شاركه عليه أحد.

ولعل السلوك الذي يتبين منه الاكتفاء الذاتي والخفاء أو السرية، مرجعه إلى الرغبة في الاستقلال، والنزعة إلى الاستقلال مظهر لحب

السيطرة؛ إذ إن الواهم -على العكس من المعتدي- لا يحب أن ينزل في مشاكسة أو منافسة.

والأغلب في هؤلاء الواهمين أنهم لا يميلون إلى الزواج؛ لأن الزواج صلة بشخص آخر، وهمهم في العزلة والانفراد. والأغرب من ذلك أنهم لا يحبون أن يوقعوا عقدًا كالبيع والشراء.. وليس الزواج إلا عقدًا يجعل صاحبه مسؤولًا أمام شخص آخر، وترجع العلة في ذلك إلى هروبهم من المسؤولية وخشيتهم من تنفيذ الوعد.

وقد أطلق بعض المحدثين على الواهمين الذين يحبون معيشة العزلة اسم أولئك الذين يعيشون في «أبراج عاجية»، ومعنى ذلك أنهم يرفعون أنفسهم فوق مستوى المجتمع ليحس بالسيطرة أو السلطان، ونحن نعلم أن حب السيطرة نزعة طبيعية، جعلها «أدلر» النزعة الوحيدة التي تسوق الناس في الحياة، ولا ريب في أن الواهم لم يُولد كذلك، وإنما دفعته الظروف في الحياة، سواء في الطفولة أو الشباب أو في أي فترة من الفترات إلى اتخاذ هذا الموقف، ولا ريب في أنه نزل إلى ميدان المجتمع وجرب حظه فيه مسالمًا أو مهاجمًا، فتغلب عليه غيره، ولم يفز بما يطمع من سيطرة، فانسحب من الميدان، وخلق لنفسه هذا العالم الوهمي الذي يتربع على عرشه. وقد تزيد حالة هؤلاء الواهمين إلى درجة تفصلهم عن المجتمع انفصالًا شديدًا فيصبحون من المجانين. أعرف شخصًا كان يشتغل خادمًا في عيادة طبيب أسنان وكان يختلف في الليل إلى جلسة جماعة من الأدباء في الحي اللاتيني -أعني سيدنا الحسين- وكان القوم يتندرون عليه، والتقط منهم بعض

العبارات التي ينطقون بها وحفظها، فاعتقد في نفسه أنه أديب وكاتب وسياسي وخطيب، وقوي في نفسه هذا الوهم على مر السنين، حتى أصبح عقيدة راسخة وأُصيب بالجنون. وأعرف شخصًا آخر يتوهم أنه وزير، وكلما سقطت وزارة سعى ليكون عضوًا في الوزارة الجديدة، مع أنه أشبه بالأميين.

هؤلاء الحالمون أو الواهمون مصيرهم أحد أمرين: إما الجنون، وإما الاصطدام بالحقيقة الواقعة فيعودون إلى الصواب. ولكنهم ينطوون على أنفسهم ويعيشون في عزلة.

وكل واحد منا تمر به هذه اللحظات، التي يتصور فيها أنه أصبح غنيًّا أو أميرًا، فيحقق رغباته فيما نسميه بأحلام اليقظة، ولكن الواحد منا سرعان ما يرجع إلى الواقع ويثوب إلى الرشد.

ولكن أبرز صفات الواهمين هي محاولتهم أن يخفتوا صوت كل عاطفة، وعندئذ يقوى فيهم جانب الابتكار القائم على الخيال، ولذلك كان أغلب المخترعين والمكتشفين من رجال العلم من هؤلاء الواهمين.

فالابتكار كأنه تصريف طبيعي لانعدام الناحية العاطفية، وكلما ضغط الإنسان الانفعالات والعواطف، برزت ناحية الذكاء، بشرط ألَّا يكون من الذكاء المريض.

ومما نلاحظه على هذا الصنف من الناس، أنهم يهربون من التحليل النفساني؛ لأن اتصالاتهم بالطبيب المعالج تقتضي أن يفضي

المريض بمكنونات نفسه. ولما كان المريض يعشق العزلة ويحب الحياة الخفية التي لا يُطلع عليها أحدًا، فمن العسير أن يخضع هذا الشخص للتحليل. إلا أن مثل هذا الشخص يحسن تحليل نفسه ويبرع في مراقبتها، ولذلك يصوغ لنفسه لون الحياة الذي يروقه.

وقد ينتهي الأمر، أو كثيرًا ما ينتهي الأمر بالواهمين إلى أن يرتمي أحدهم في أحضان الدين، ويسلك طريق الصوفية، فالصوفي يقطع العلائق بالخلق؛ ليتصل بالحق في هذا العالم المنعزل، الذي يحب أن يكون فيه وحيدًا.

وفي ذلك يقول ابن الفارض في قصيدته المشهورة:

وعَمّـــرْتُ أَوْقَاتـــي بِوِرْدٍ لِوَارِدٍ

وَصمْتٍ لسَمْت واعتكاف لحرمة

وبِنتُ عنِ الأوطانِ هِجران قاطـعٍ

مُواصَلَةَ الإِخوانِ واخترتُ عُزْلتي

وجَرَّدتُ في التجريد عزْمي تزَهُّدًا

وآثَرْتُ في نُسكي استِجابةَ دَعوتي

* * *

ثمن الناس

وهل يمكن أن يكون للإنسان ثمن يقوم به، ويُباع ويُشترى كما تُباع الأغنام؟

قد يبدو هذا الخاطر اليوم غريبًا غير مألوف، وقد تقشعر النفس من التفكير فيه، أعني أن نجعل من الإنسان سلعة متداولة، فإذا قلبنا النظر في التاريخ منذ أقدم العصور إلى عهد قريب جدًّا، أي في القرن التاسع عشر، لوجدنا أسواق الرقيق في أغلب الدول شائعة، تجد فيها كل ما تطلب من أصناف الإنسان، الذكور والإناث، البيض والسود، الصنَّاع والزرَّاع، وما إلى ذلك. ولقد خدمني -وأنا طفل- عبد أسود كان جدي يملكه، أعني أنه اشتراه بالمال. ولما وقع الجفاء بين المتنبي وكافور الإخشيدي، هجاه بالأبيات المشهورة التي جاء فيها:

لا تشتري العبد إلَّا والعصـــا معه

إنَّ العبيـــدَ لأنجـــاسٍ مناكيـــد

وكان المماليك البحرية والبرجية -الذين حكموا مصر زمنًا طويلًا حتى قضى عليهم محمد علي باشا- يُشترون بالمال وهم في

سن صغيرة، ثم يُعتقون بعد ذلك، ويرتقون حتى يبلغوا درجة البكوات والأمراء.

والسود في أمريكا من نسل العبيد، الذين كان النخاسة يجلبونهم من أواسط إفريقيا ثم يبيعونهم للأمريكان.

هذا كله تاريخ معروف يتبين منه أن الإنسان إلى عهد قريب كان يُقوَّم بالمال، وتختلف قيمة شخص عن آخر بمقدار منافعه. فالقينة الجميلة أغلى من القبيحة، فإذا كانت متعلمة كانت أكثر ثمنًا، وإذا أضافت إلى ذلك العلم بالشِّعر والعزف على الآلات الموسيقية، تهافت عليها المشترون ودفعوا لصاحبها آلاف الدنانير.

والمال معيار ثابت، أو هو أفضل الموازين المعروفة لتقويم الأشياء. فإذا كنا قد عدلنا عن شراء الناس، فبأي ميزان جديد يمكن أن نقدرهم؟ وهل يمكن تقدير الإنسان؟ وهل المال مقياس صالح؟ ولماذا عدل عنه؟

قالوا لا يجوز أن يُباع الإنسان ويُشترى كما نفعل في السلع؛ لأن في ذلك إهدارًا للإنسانية ونزولًا بالكرامة وفقدانًا للحرية. وتاريخ الإنسانية صراع في سبيل الحصول على الحرية والمساواة، وقد مضى عهد الاستعباد. فلما تحققت المساواة واستتبت الديموقراطية، حاربوا الرق والاستعباد وأُعلنت حقوق الإنسان، واصطلحت الدول على منع الرق وشرائه وبيعه في أي دولة من دول العالم. أما الرقيق الأبيض، فهذه سوق سوداء تعمل الحكومات على ضبطها والضرب على أيدي المشتغلين بها.

هذا من الناحية النظرية، أما في الواقع فلا يزال الناس يقوَّمون بالمال. كل ما في الأمر أن عقد البيع أصبح عقد إيجار. فأنت حين تنضج وتتهيأ للعمل لا تبيع نفسك أو لا يشتريك صاحب العمل بحيث تصبح ملكًا له يتصرف فيك كيف شاء، كما كان من قبل، وإنما ينظر صاحب العمل ويزن قيمتك، وهذه القيمة تساوي المنفعة أو المنافع التي سوف يحصل عليها منك، ثم يقول سوف أعطيك أجرًا يوميًّا أو أسبوعيًّا أو مشاهرة بمبلغ كذا. أليس معنى ذلك أنك تقدَّر بالمال؟ وأنك ترفض إذا شعرت بضآلة الأجر، وتترك صاحب هذا العمل إذا وجدت من يدفع لك أجرًا أعلى؟

وسواء أكنت ملك نفسك أم ملك صاحب العمل الذي تشتغل عنده، فالنتيجة واحدة؛ لأنك في الحالين تُوزن بميزان المال.

والأمر في الصنَّاع والفلاحين كالأمر في المفكرين والفنانين.

فإن قلت: ليس هذا ثمن الشخص، بل هو ثمن علمه وقيمة صنعته، قلنا: ولأي شيء كان الناس يُباعون، ألم يكن لأعمالهم التي يؤدونها؟ وليس الشخص إلا مجموعة صناعاته وأعماله.

وقال صاحبي، وقد عرضت عليه هذه الآراء، فكبرت في نفسه أن يرى الإنسان كالسلعة: هذا تفكير مادي، أو «أمريكاني»، فقد ظهرت بدعة غريبة يحاول أصحابها تقدير كل شيء بالمال أو بالمادة، فيأتي السائح إلى القاهرة ويتفرج على أهرام الجيزة، ثم يقول كم تساوي الأهرام؟ وكم تتكلف في البناء؟ مع أن للأهرامات قيمة تاريخية لا

يمكن أن تُوزن بالمال. فليس الخطأ في التقدير بالزيادة أو النقصان، بل الخطأ في قياس ما لا يمكن أن يُقاس.

قلت له: أنت واهم يا صاحبي؛ لأن الواقع المُشاهد أن الناس يقدِّرون بميزان من المال، ولك أن تزعم أن الإنسان لا يمكن قياسه لأنه ليس شيئًا ماديًّا، ولكن زعمك هذا لا يغير من الواقع شيئًا.

قال: فإذا سلمنا بهذا المبدأ، فكيف يمكن أن تزن عظماء الرجال مثل مصطفى كمال ونابليون من رجال السياسة، وشكسبير وشوقي من أعلام الأدب؟ وكيف يمكن أن تزن الرجال الذين وهبوا أنفسهم للخير مثل رجال الدين، أو سقراط الذي لم يتناول في حياته أجرًا على التعليم؟ وكيف تطمئن إلى مقياس المال وهو مقياس غير ثابت؟

وهذه اعتراضات لها وجاهتها، وتبعث على التفكير في هذا العالم المادي، عالم اليوم، وهل حقًّا هو أفضل العوالم؟ وهل العالم الروحاني والمثالي لم يبقَ لهما وجود؟

أما أن المال مقياس غير ثابت، فهذا صحيح؛ فنحن نرى النقد ينهار ويفقد قيمته، وليس الذهب أو أي عملة إلا اصطلاح بين الناس لتقويم الأشياء، أما الأصل فهو الإنتاج أو العمل. وأعمال الإنسان منها اقتصادية كالنسيج والبناء، ومنها معنوية روحية كالمشرع والمفكر والأديب والفنان. ولا نريد أن ندخل في مناقشة جدلية أيهما أرفع منزلة الأشياء المادية أم الروحية؟ فهذه مناظرات كلامية لا تهدف إلى الحق بمقدار ما تهدف إلى البيان. والتحقيق أن العالم مركب من عنصرين

لا غنى لأحدهما عن صاحبه، العنصر المادي والعنصر الروحاني، بل الإنسان مركب من عنصرين النفس والبدن، وكلاهما ضروري في وجود الشخص، فإذا كانت المذاهب المادية تنظر إلى البدن، فالمذاهب الروحية والمثالية تغفل الجسم ولا تحسب إلا حساب النفس. وكلا المذهبين مخطئ في تحيزه ومغالاته.

وهل يزن الزوج زوجته بميزان واحد هو جمال الوجه ورشاقة الجسم ونضارة الشباب ووفرة الثروة، أم يدخل في حسابه -إلى جانب ذلك- درجة العلم والثقافة، وطيب العنصر وحسن الخلق وخفة الروح، ثم كيف تزن خفة الروح وثقل الظل؟

بل هناك أمر آخر خلاف المال والعلم هو السلطان والمنزلة الاجتماعية؛ فهذا وزير خطير يتربع في الدولة منزلة عظيمة، ويبذل لها من عقله ووقته ما ينفعها في حاضرها ومستقبلها، وقد لا يملك إلا مرتبه، وهو مرتب ضئيل إذا قسناه إلى جانب تاجر من أغنياء الحرب أو مزارع أثرى من بيع القطن، ولنفرض أننا عرضنا الوزير الخطير وغني الحرب في مزاد نبيعهما فيه، فكم يساوي ثمن كل منهما وكيف يقدَّر الثمن؟

وقد يموت مفكر أو مصلح أو فيلسوف أو فنان فقيرًا خاملًا مغمورًا؛ لأن أهل زمانه لم يرضوا عنه، أو لم يفهموه حق الفهم، فإذا به يُخلَّد بعد موته وتُنصب له التماثيل، ويُنفض عنه غبار النسيان، ويصبح علمًا من أعلام التاريخ. فالزعم بأن المال هو المقياس الوحيد للرجال زعم فاسد.

ولكن الناس يُفتنون ببريق الذهب، ويرون أنه أداة سحرية يحصلون بها على كل ما يطلبون، فأصبح همهم الوحيد جمعَ المال واقتناءَه، وخُيِّل إليهم أن قيمة الإنسان فيما عنده من مال، وهذا هو سر إقبال الناس على جمع المال وتكديسه، فأصبحوا من أهل الدنيا لا من أهل الدين. وهذا المعنى هو الذي دفع فريقًا من المسلمين إلى السخط على عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ لأنه ابتنى الدور والقصور، وأغدق من أموال الدولة على أقربائه، مما لم يُعهدْ عن سلفيه أبي بكر وعمر المتجردين عن الدنيا. إنهم كانوا يريدون الخليفة مجردًا من المادة بريئًا من شوائبها يعمل للآخرة فقط. رحم الله الصحابة الأولين؛ فقد كانوا ممن لا يقوَّمون بمال، وركعت الفرس والروم تحت أقدامهم؛ لأنهم وهبوا أنفسهم للدين.

وهذا هو الثمن الصحيح للناس عندما يقدمون الحساب يوم الحساب.

ولكن عالم اليوم عالم مغرق في المادية مع الأسف الشديد.

* * *

في الصداقة والصديق

وقَّع الخضر في كشكوله من (الرسالة)، يقول إنه لاحظ أنني كلما أخرجت كتابًا كتب عنه الأستاذ عبد الغني حسن، وأن العكس صحيح. يريد أنه كلما أخرج كتابًا أو ديوانًا أكتب عنه، والتوقيع على إيجازه -وإن كان صحيحًا- يحمل معنى التعجب، أو هو خبر ينطوي على استفهام، وإشارة تحتاج إلى تفسير وبيان.

وبيان هذا التبادل أنه دليل على الصداقة أو هو آية الأُخوة. ولكاتب التوقيع أن يعجب في زمن أصبحت فيه الصداقة أندر من الكبريت الأحمر، فإذا رأى أحد شخصين قد ائتلف قلباهما على المحبة، وقامت العلاقة بينهما على المودة، لفت ذلك نظره لغرابته وشذوذه، وبعده عن المألوف، وانفراده من المتعارف الشائع المعروف. ولقد حكى القدماء من الحكماء أن المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخل الوفي. فإذا كان الخلان الأوفياء قد عز وجودهم في قديم الزمان، فوجودهم أعز اليوم وأندر، مع فساد الزمان وانتشار موجة المادية، والتمسك بأسباب الدنيا ومتاعها وزينتها ومنافعها.

فإذا عثر الإنسان على الصديق، كان كالذي اهتدى إلى المستحيل، وعثر على كنز ثمين. وقد قوَّموا الناس بالمال، فوزنوا مهراجا الهند، وقدموا المهور إلى الحسان، ولكن الصديق الحق إذا أخلص وبرئ عن المصلحة، كان أثمن من الذهب، فلا يقوّمه مال ولو عُدَّ بالملايين. وللعامة من الناس تشبيه مادي طريف، قالوا: الناس أجناس، ذهب وفضة ونحاس، أما الإنسان الذي كالذهب، فكلما عبر سنوات الزمان زاد جوهره ولم تنقص نفاسته، ولم يذهب بريقه أو ينطفئ رونقه. وأما الإنسان الذي كالنحاس، فإنه يخدعك بمنظره وهو المعدن الخسيس تطلبه فلا يلبث أن يصدأ، وتجلوه فيأبى الجلاء ويعود إلى الانطفاء، فإذا اتخذت من هذا الصنف صديقًا، خدعك ببريقه وغشك بمظهره؛ باطنه على خلاف ظاهره، وباطنه هو الذي يدفع إلى الانطفاء والصدأ، وهذا هو جوهره لا يستطيع عنه حولًا، أو نحيزته لا يستطيع لها تبديلًا، ولذلك كان العثور على الصديق الصادق عسير المنال؛ لقلة الذهب وكثرة النحاس، والناس كذلك منهم النفيس ومنهم الخسيس.

والصديق الذي كالذهب تعتز بصحبته، وينفعك في محنتك، ويُقْبل عليك في وقت شدتك، ثم تأمن إلى جانبه وتركن إلى معونته، وتُفْضي إليه بجملة نفسك وأنت مطمئن إلى حفظ السر وحمل الأمانة، فإذا برئت النفوس من المنافع، وتخلصت من الأطماع، وتجردت عن الأهواء، ثم آثرت الإيثار، اتصلت النفوس وائتلفت الأرواح، وهذه هي الصداقة في أعلى مراتبها، وأفضل صورها، وما ينبغي أن تكون عليه.

والصداقة فضيلة تأمر بها الأخلاق وتحث على توثيقها. وأفضل

الأخلاق ما طلب صاحبها الفضائل لذاتها، ولأنها واجبة في نفسها، كما ذهب إلى ذلك كانط الفيلسوف الألماني. فنحن نعمل الفضائل طلبًا للمنفعة أو اللذة أو السعادة، وبذلك تخضع الفضيلة لغاية أخرى، فينصرف المرء إلى تحقيق هذه الغاية، ولو امتطى ظهر الرذائل وصورها في صورة الفضائل. لذلك ينبغي أن تُطلب الصداقة لذاتها، وحينئذ يحس المرء بلذتها.

والصداقة من أقوى الروابط التي يقوم عليها دعاة المجتمع، فإذا شاعت في أمة تماسكت، ثم قويت لتماسكها، ثم علا شأنها لقوتها، فتصدرت سائر الأمم لعلو شأنها والاعتراف بمنزلتها.. وكان هذا هو حال الأمة الإسلامية في بدء نشأتها. وأنت تعلم أن الدعوة الإسلامية قامت على اثنين من الرجال، النبي -عليه السلام- وأبي بكر الذي سُمِّي -لصداقته وفرط تصديقه- بالصدِّيق دلالة على المبالغة، فقالوا: أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه. وإذا اطلعت على سير الرجال من أهل الإسلام في عزه وعنفوانه، وفي أوجه وعلمه وسلطانه، يوم أن كانت أوروبا تعيش على علوم الشرق وتغرف من عمرانه، رأيت أنَّ الروابط بينهم قامت على الصداقة وعلى التفاني والوفاء، وعلى الإخلاص والإيثار، والإيثار أعلى مراتب الصدقات. حكت كتب القدماء أن عشرة من المسلمين وقعوا جرحى في قتال إحدى الغزوات، وكانت مع أحدهم شربة ماء لا تكفي إلا واحدًا لتهبه الحياة، فآثر بها صاحبه ومات، وآثر بها الثاني صاحبه ومات، وهكذا حتى مات الجميع.

ونحن نرى الجماعة تحتاج إلى ترابط يوثق ما بين أفرادها، وليست هذه الروابط مادية يمكن أن تُرى، فليس هناك حبل يربط بين فلان وفلان، ولو كانت الروابط حبلًا لتقطعت، وبقيت الصداقات الصادقة لأنها أوثق، ثم لا تُبلى مع مرور الزمان، بل تقوى على الأيام.

ومن المُشَاهد أن الشرق منحل الأواصر، كثير التنابذ، يشيع الحسد بين الناس، وتشتد العداوات الشخصية حتى لتشغل أوقات الناس وتصرفهم عن المصالح العامة.. وهذه هي أخلاق الجاهلية الأولى التي جاء الإسلام ليحل محلها المودة والسلام.

والصداقة والعداوة مما ينشأ مع الطفولة، ويُبث بالتربية، ويُعالج بالتهذيب. والصداقة التي ترتفع إلى منزلة الأُخوة تظهر في الأسرة بين الأشقاء، وتظهر في المدرسة بين الأنداد، ولكننا في مصر قد أهملنا التربية فتركنا الحبل على الغارب، أو سلمنا الأمر لله، مع أن الله قد أودع فينا العقل للتمييز. وقد أثبت مذهب التحليل النفساني أن الأحوال النفسية التي تُصاحب الناس في كبرهم، تمتد جذورها إلى زمن الطفولة الأولى، والصغار في بيوتنا في شقاء؛ لجهل الآباء والأمهات بأصول التربية وأسرار النفس، فهم يمنعون الطفل من اللعب، ويحبسونه في البيت، ويكثرون من ضربه وإيذائه وإنهاره، فينشأ على الحقد والبغضاء.. ثم يغرون الأخ بأخيه، ويفضلون الشقيق على شقيقه، فيظهر في أنفسهم الحسد، وهو شر ما يُبلى به الإنسان، وهو آفة الصداقة.

والمدرسة المصرية دار تحضر الطالب للامتحان والحصول على الإجازة، وليست المجتمع المثالي الصالح الذي يؤلف بين القلوب، ويقوم فيه التعليم على المشاركة والتعاون بين التلاميذ. وقد سمعنا عن طلبة يأبون إعطاء مذكراتهم لزملائهم نفاسة وحسدًا وانفرادًا بالامتياز، فكيف ترتقب من المدرسة أن تنشئ جيلًا من الأصدقاء وهذه حالتها؟ وكيف تزعم أن الروابط بين أفراد الشعب وثيقة مع انعدام الصداقات؟

* * *